النقد التربوي: تعريفه ، أهميته ، أهدافه

تعريف النقد لغة: قال الجوهري: "نَقَدتُ الدراهم وانتقَدْتُها، إذا أخرجتَ منها الزَّيْفَ..، وناقَدتُ فلانا، إذا ناقشته في الامر..، والنقد أيضا: تقشُّرٌ في الحافر وتأكُّلٌ في الاسنان..، وما زال فلانٌ ينْقُد بصرُه إلى الشيء، إذا لم يزل ينظر إليه"، والنقر بالإصبع في الجوز، وضرْب الطائر مِنقاده في الفخ، أي: بمنقاره، وصاحب النقد نقّاد، جمع نِقَّاد ونِقادة ، ونقَدَ النثر والشعر بيّن ما فيهما من حُسْن أو عيب، وفلان ينقد الناس: يعيبهم ويغتابهم، وناقَدَه: ناقشه في الأمر، والنقْدُ: البطيء الشباب القليل الجسم، والنقد ضربٌ من الشجر.. وفي الصحيحين في قصة جابر حين باع جملَه على النبي ﷺ، ثم أعاده إليه وأعطاه ثمَنَه، قال جابر رضي الله عنه: ونَقَدني ثَمَنه، أي أعْطانيه نَقْداً مُعَجَّلاً، النَّقَد : صِغار الغَنَم واحدتُها: نَقَدَة، وجَمْعُها: نِقَادٌ.. ومما سبق يتضح أن للنقد معان منها: التمييز، المناقشة، التقليل والتآكل، طول النظر في الشيء، الضرب بالشيء، إبداء المحاسن والمعايب.

وهذه المعاني تعتمد على الجانب الفكري، إذ يمر النقد بعدة مراحل فكرية بدء من النظر الطويل، والتمييز، والمناقشة، وتناول جوانب القوة والضعف ثم إصدار الحكم، ومتى ما أُحسِن استخدامه وتوظيفه في أهداف مشروعة، من قِبل مختصين، بضوابط محددة فإنه سيؤدي دوراً مهماً في تطوير المجال الذي يسلكه، وسيساعد أهل الاختصاص في تشخيص واقعهم، والرقي بعملهم، واستشراف مستقبلهم.

وفي الاصطلاح: لا يخرج معناه عن المعاني السابقة، إذِ المراد من نقد العلم تمييزه، ومناقشته بعد طول النظر إليه، واختباره، ثم بيان محاسنه وعيوبه، وهو بهذه المعاني والمراحل أمر مطلوب في تطوير المجال الذي يتناوله، سواء في العلوم النظرية أو التطبيقية، وهو أحد علوم الحديث، وهو علم الجرح والتعديل، وبهذا العلم حُفظ العلم، ومُيِّز صحيحه من ضعيفه، ومعلوله من موصوله.. ويُعرّف الجابري النقد التربوي بأنه: "عملية فكرية علمية، تقوم على دراسة المجالات التربوية، بهدف التصحيح والتطوير، ثم إصدار الحكم عليها وفق منهج تعاليم الإسلام". وهذا التعريف شامل مختصر، عرّف بطبيعة النقد التربوي، ومجاله، وهدفه، وما يسعى إليه، ويُعرّفه الباحث تعريفا قريباً من تعريف الجابري، بأنه: عملية فكرية علمية، تقوم على دراسة دقيقة واضحة الأهداف للمجالات التربوية، بهدف التطوير والتجديد وتصحيح الوضع، لإصدار الحكم عليها بما لا يخالف تعاليم الإسلام.

أهمية النقد التربوي: تأتي أهمية النقد التربوي من أمور منها:

- أنه منهج قرآني، يُربي الأفراد والجماعات، يعرِّض بهم تارة، ويُفصح عنهم تارة، ويُباشر الخطاب تارة، بما لا يُورث في النفس مرارة، ولا بالمجال غضاضة، فالهدف يتجاوز الأعيان لتربية الأمة أفراداً وجماعات، بالأمر والنهي، أو الترغيب والترهيب، أو التلميح والتصريح.. ومن الأمثلة على ذلك، قوله تعالى: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ

وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٠٥]، قال أبو جعفر: "يعني بذلك جل ثناؤه: ولا تكونوا، يا معشر الذين آمنوا كالذين تفرقوا من أهل الكتاب واختلفوا في دين الله وأمره ونهيه، من بعد ما جاءهم البينات، من حجج الله، فيما اختلفوا فيه، وعلموا الحقَّ فيه فتعمدوا خلافه، وخالفوا أمرَ الله، ونقضوا عهده وميثاقه، جراءةً على الله.. ولهؤلاء الذين تفرقوا، واختلفوا من أهل الكتاب من بعد ما جاءهم عذاب من عند الله عظيم، فلا تتفرقوا، يا معشر المؤمنين، في دينكم تفرُّق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنوا في دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الذي لهم".

- أنه منهج الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ومَن سار على نهجيهم من العلماء والدعاة والمربين، فالنقد أحد أوجه النصيحة، التي حثّ عليها الدين الإسلامي، ورغّب فيها، ومن أعظم المهام التي أُرسِل من أجلها الأنبياء هو تصحيح العقيدة، وبيان ما يضادها، وتصحيح العبادات والمعاملات والأخلاق، ونشر العلم، والدعوة للعمل الصالح، قال سبحانه وتعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [آل عمران: ١٦٤].
- أنه أحد وسائل التقدم العلمي والتطور الحضاري، ومواكبة النهضة الحديثة، فالتربية عملية استثمار لرأس المال، ودور التربية في التنمية والتقدم والاقتصاد في تزايد مستمر، مع تزايد الأبحاث التي تُوصي بأهمية استثمار التربية، وتبحث أيضاً عن مصادر تمويل مختلفة يمكن أن تغطي نفقات التعليم، وتُخفف من أعبائه على الحكومات، ومن خلال النقد التربوي وما يقوم به من إسهامات في تطوير العملية التعليمية والرقي بها تظهر الحاجة له، وتبرز الأهمية لوجوره كشريك فاعل في عملية التطوير والتجديد وتحقيق الأهداف المرجوة.
- يُربي على اتخاذ القرار الصحيح، بعد تروٍّ وتأمل ودراسة، فهو دراسة علمية ذات أهداف.
- يُربي على إصدار الأحكام التي يُتوخّى فيها الدقةوالموضوعيةبعد استحضار جميع الجوانب والنظر في الأحوال والأزمان والأعيان.
- تقتضيه طبيعة الحياة اليومية، التي تُوصف بالتغيّر والتنوع، والتقلب والانفتاح على الآخرين، في ظل عولمة التقنية وتداخل الثقافات والاطلاع على الحضارات المتنوعة.
- ضرورة مهمة للعملية التعليمية، وهو أحد أركانها المهمة غير المعلنة، إذ من خلاله يتم تطوير المناهج، وتنويع الأساليب، والممازجة بين استراتيجيات التدريس، ووسائل إيصال المعلومات وعرضها وشرحها وتقويمها، وبالنقد التربوي وممارسته بشكل مدروس تكتسب العملية التربوية والتعليمية تطوراً مستمراً، ونمواً دائما، وحراكاً فاعلاً، مما يُعين في تحقيق أفضل النتائج، ورفع مستوى مخرجات التعليم، سعياً لتقدم علمي ورقي حضاري، وازدهار اقتصادي، تسعى إليه الأمم والشعوب.

- يُسهم في إكساب الأفراد المهارات والقدرات اللازمة للتوافق مع الآخرين، من خلال ما يُحققه لمن يقوم بعملية النقد، أو لِمَن يقع عليهم النقد، فالتبصير بالحال الحاضر، وما ينبغي أن يكون عليه، ويُتَطلع إليه، مما تُحققه إكساب مهارات تكيف وتأقلم مع الواقع، فالمؤمن مِرآة أخيه، يُبصّره بعيوبه، ويُعينه على إصلاح أمره.
- من سمات التربية الإسلامية أنها مرنة غير جامدة، مستجيبة في كل مكان وزمان لما يحتاجه الناس في حياتهم مما يطرأ من أمور، ومستجدات معاصرة، وهذا يتطلب منها نقداً هادفاً، ومدروساً، وعلمياً، يسعى لتحقيق أهداف معينة، وإصلاح مرحلة، وتنشئة أمة.. مرونةً لا تُفضي للمساس بثابت، ولا التشكيك بِمُسلَّم، بل تُوازن بين تأصيل وأصالة..
- والحديث عن تربية مثالية وواقعية تنبع من تعاليم الإسلام، وتتوافق مع حاجات العصر، وتُكيِّف وتتكيّف مع الجيل، بما لا يُسيء لها أو منها، بل يُؤكد مكانتها ودورها يحتاج لنقد تربوي وفق الضوابط المقننة، فالتربية الإسلامية لها منابع رويّة جليّة مليّة، لا تتوفر في التربيات الأخرى، وإن وقع خلل أو قصور فليس من جهة المصدر، بل من جهة الفهم أو التطبيق، ومن هنا تبرز أهمية النقد التربوي في قيام التربية بدورها المناط، ووظائفها المهمة للأفراد والمجتمعات.

أهداف النقد التربوي: من مقتضياته النصيحة، وهي حق من حقوق الأخوة في الإسلام، فبه تُؤدى الأمانة، وتبرأ ذمة الناقد متى ما أخلص لله، واتقى وأصلح، وأتى البيوت من أبوابها، وكان مراده الإصلاح ما استطاع، قال نبي الله شعيب عليه السلام لقومه: {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}، قال ﷺ: "الدِّينُ النَّصِيحَةُ" قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: "لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ"، "فالنصيحة لعامة المسلمين، بإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم، فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه.. ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه..".

- تطوير الأداء الحالي، والمساعدة في كشف الأخطاء، وإصلاح العمل التربوي، قال أبو هريرة رضي الله عنه: "المؤمن مرآة أخيه، إذا رأى فيه عيباً أصلحه" فالمؤمن يُخبر أخاه المؤمنَ بعيوبه؛ ليتخلص منها، فمن أهداف النقد، الإصلاح والتخلص من العيوب.
- أداء المسؤولية، والتخلص من الأمانة الملقاة، وأدائها على الوجه المراد، قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}، "فالأمانات كل ما ائتمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به، أمر الله عباده بأدائها كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال والأسرار؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله"، والكلمة أمانة، ومن الإيمان أن يُحب الإنسان لأخيه ما يُحبه لنفسه.

- رفع مستوى الوعي التربوي والثقافي لأفراد المجتمع، فالنقد بأهدافه الواضحة يسعى للارتقاء، لا لإيراث العداوة والشحناء بين أفراد المجتمع، فهو وسيلة إصلاح لا وسيلة هدم وتحقيق مآرب غير مشروعة، ومتى ما أدرك المجتمعُ ذلك تغيّرتِ النظرةُ للنقد إيجاباً وأسهم في رفع وعيه وتنمية ثقافته، وتوسيع مداركه، والنتاج الفكري المتمخض من النقد التربوي حين ينتشر في المجتمع يُحدث فيه وعياً فكرياً وعلمياً، مُتحرراً من قيود الوهم، والتبعية غير المنضبطة، منقاداً لما فيه الخير، يتسم بالممانعة للتيارات والآراء الفاسدة، في حصانة آمنة، وتحرر منضبط.
- يُسهم في الارتقاء بالمجتمع وتحقيق أهدافه التي يسعى للوصول إليه، قال ﷺ: "إن المؤمن للمؤمن كالبنيان، يَشُدُّ بعضُه بعضا، وشبك أصابعه، "لما شبَّه شَدَّ المؤمنين بعضهم بعضا بالبنيان، كان ذلك تشبيها بالقول، ثم أوضحه بالفعل، فشبك أصابعه؛ ليتأكد بذلك المثال الذي ضربه لهم بقوله، ويزداد بيانا وظهورا، ويفهم من تشبيكه أن تعاضد المؤمنين بينهم كتشبيك الأصابع بعضها في بعض، فكما أن أصابع اليدين متعددة، فهي ترجع إلى أصل واحد ورجل واحد، فكذلك المؤمنون، وإن تعددتْ أشخاصُهم، فهم يرجعون إلى أصل واحد"، وكلما اشترك في عملية النقد أكثر من شخص، حصل في ذلك تلاقح أفكار كما يُقال، وتوارد مشارب، وتنوع رُؤى، ما تجعل عملية النقد أقرب للصواب، وأكثر حظاً للنجاح والوصول للمراد، فالاجتماع الإنساني الإسلامي في ذاته مطلوب محمود، وإذا صحبته رغبة في تصحيح الأخطاء ومعالجة الأوضاع، وإن خالف ذلك معهوداً، أو موروثاً دأب عليه السابقون زمناً، فإنه يُؤكد الصلة بين المجتمع الذي تتحد أهدافه، وتتفق رُؤاه، بل يزيد من عُرى التواصل بين الأفراد والجماعات، ومن ذلك العملية التعليمية، وما يكون بين المعلم والمتعلم من نقد تربوي، في حقيقته يؤدي إلى تأكيد معاني المحبة والألفة، ويزيل الحواجز التي تعوق التعليم، وربما حالتْ دونه ودون الانتفاع بالعملية التعليمية.

مسألة الابتعاث عند الشيخ ابن باز رحمه الله

ضوابط عامة يمكن استنباطها في منهجية الشيخ ابن باز رحمه الله:

أولاً: وجوب الرد على المخالفين: قال رحمه الله: "الواجب على علماء الحق.. أن ينشروا الدعوة الإسلامية ويقوموا بتنقية العقيدة من البدع والضلالات والانحرافات" مجموع فتاوى الشيخ (٣/١٣٥). وقال: "طالب العلم حريص جداً أن لا يكتم شيئاً مما علم، حريص على بيان الحق والرد على الخصوم لدين الإسلام، لا يتساهل ولا ينزوي حسب طاقته، فإن ظهر خصوم للإسلام يشبهون ويطعنون – برز للرد عليهم كتابة ومشافهة وغير ذلك لا يتساهل ولا يقول هذه لها غيري، بل يقول: أنا لها.. أنا لها.. ولو كان هناك أئمة آخرون يخشى أن تفوت المسألة.. يبرز في الوقت المناسب لنصر الحق، والرد على خصوم الإسلام بالكتابة وغيرها.. من طريق الإذاعة، أو من طريق الصحافة، أو من طريق التلفاز، أو من أي طريق يمكنه، وهو أيضا لا يكتم ما عنده من العلم، بل يكتب ويخطب، ويتكلم ويرد على أهل البدع، وعلى غيرهم من خصوم الإسلام بما أعطاه الله من قوة، حسب علمه وما يسر الله له من أنواع الاستطاعة. مجموع فتاوى الشيخ (٧/٢٢٠). وقال: "فالواجب على علماء المسلمين توضيح الحقيقة ومناقشة كل

جماعة أو جمعية ونصح الجميع.. ومن تجاوز هذا أو استمر في عناده لمصالح شخصية أو لمقاصد لا يعلمها إلا الله– فإن الواجب التشهير به والتحذير منه ممن عرف الحقيقة، حتى يتجنب الناس طريقهم وحتى لا يدخل معهم من لا يعرف حقيقة أمرهم فيضلوه ويصرفوه عن الطريق المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه). مجموع فتاوى الشيخ (٥/٢٠٣).

ثانياً: الوصية بالاطلاع على كتب الردود: قال رحمه الله: "ونوصيك أيضا بمطالعة جواب شيخ الإسلام ابن تيمية لأهل حماة، وجوابه لأهل تدمر..، ونوصيك أيضا بمطالعة (القصيدة النونية) و(مختصر الصواعق المرسلة) وكلاهما للعلامة ابن القيم رحمه الله. مجموع فتاوى الشيخ (٢/١٠٧).

ثالثاً: الرفق واللين بالمخالف، والشدة إذا اقتضى الأمر أيضاً: قال رحمه الله: "الشريعة الكاملة جاءت باللين في محله، والشدة في محلها، فلا يجوز للمسلم أن يتجاهل ذلك، ولا يجوز أيضا أن يوضع اللين في محل الشدة، ولا الشدة في محل اللين، ولا ينبغي أيضا أن ينسب إلى الشريعة أنها جاءت باللين فقط، ولا أنها جاءت بالشدة فقط، بل هي شريعة حكيمة كاملة صالحة لكل زمان ومكان ولإصلاح جميع الأمة، ولذلك جاءت بالأمرين معا، واتسمت بالعدل والحكمة والسماحة فهي شريعة سمحة في أحكامها وعدم تكليفها ما لا يطاق، ولأنها تبدأ في دعوتها باللين والحكمة والرفق، فإذا لم يؤثر ذلك وتجاوز الإنسان حده وطغى وبغى أخذته بالقوة والشدة وعاملته بما يردعه ويعرفه سوء عمله.. ولا ينبغي للداعية أن يلجأ إلى الشدة والغلظة إلا عند الحاجة والضرورة وعدم حصول المقصود بالطريقة الأولى، وبذلك يكون الداعي إلى الله سبحانه قد أعطى المقامين حقهما وترسم هدي الشريعة في الجانبين. مجموع الشيخ فتاوى (٣/٢٠٥).

رابعاً: التصريح بذكر أسماء بعض المخالفين الذين رد عليهم: "أردنا نصيحة إخواننا العلماء والدعاة بأن يكون نقدهم لإخوانهم فيما يصدر من مقالات أو ندوات أو محاضرات أن يكون نقداً بناء بعيداً عن التجريح وتسمية الأشخاص؛ لأن هذا قد يسبب شحناء وعداوة بين الجميع، وكان من عادة النبي ﷺ وطريقته إذا بلغه عن بعض أصحابه شيء لا يوافق الشرع نبه على ذلك بقوله ﷺ: "ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ثم يبين الأمر الشرعي عليه الصلاة والسلام"... فمقصودي هو ما قاله النبي ﷺ أي أن التنبيه يكون بمثل هذا الكلام: بعض الناس قال كذا، وبعض الناس يقول كذا، والمشروع كذا، فيكون الانتقاد من غير تجريح لأحد معين، ولكن من باب بيان الأمر الشرعي، حتى تبقى المودة والمحبة بين الإخوان وبين الدعاة وبين العلماء، ولست أقصد بذلك أناسا معينين وإنما قصدت العموم جميع الدعاة والعلماء في الداخل والخارج، فنصيحتي للجميع أن يكون التخاطب فيما يتعلق بالنصيحة والنقد من طريق الإبهام لا من طريق التعيين إذ المقصود التنبيه على الخطأ والغلط وما ينبغي من بيان الصواب والحق من دون حاجة إلى تجريح فلان وفلان". فتاوى الشيخ (٧/٣١٦).

خامساً: سؤال أهل العلم عما أشكل: قال رحمه الله: "من جهل الحق وجب عليه أن يسأل أهل العلم المعروفين بالعلم والفضل، وحسن العقيدة والسيرة...". مجموع فتاوى الشيخ (٢/٣١١).

سادساً: التحذير من التعصب لعالم أو قول: قال رحمه الله: "ولكن لا يجوز أبداً أن يتعصب لواحد منهم – أي أهل العلم– مطلقاً، وأن يقال: قوله هو الصواب مطلقاً. بل يقال: كل واحد قد يخطئ ويصيب، والصواب فيما وافق ما قاله الله ورسوله، وما دل عليه شرع الله من طريق الكتاب والسنة وإجماع أهل العلم، فإذا اختلفوا وجب الرد إلى الله ورسوله ، كما قال سبحانه وتعالى: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) وقال عز وجل: (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) هكذا قال أهل العلم قديماً وحديثاً، ولا يجوز أبداً التعصب لزيد أو عمرو، ولا لرأي فلان أو علان، ولا لحزب فلان أو الطريقة الفلانية، أو الجماعة

الفلانية، كل هذا من الأخطاء الجديدة، التي وقع فيها كثير من الناس، فيجب أن يكون المسلمون هدفهم واحد ، وهو اتباع كتاب الله وسنة رسوله – عليه الصلاة والسلام –...وعند اختلاف أهل العلم ينظر في أقوالهم ، ويؤيد منها ما وافق الدليل من دون تعصب لأحد من الناس" مجموع فتاوى الشيخ (٣١١/٢)

يمكن استنباط منهج الشيخ ابن باز في نقد مسألة الابتعاث للخارج من أجل الدراسة في الآتي:

شروط ينبغي أن تكون في الشخص المبتعَث نفسِه:

- أن يكون من الكبار الذين قد حصلوا العلم الكثير، وأن يكون ذا بصيرة في دينه، وأن يكون من أهل الفضل والعلم ورجاحة العقل والاستقامة في الدين، وأن يكون معه من يلاحظه ويراقبه، ويلاحظ سلوكه حتى لا يذهب مذاهب تضره، ويجب أن يُعتنى به، وأن يتابع حتى يتم الأمر فيه، إذا طالب العلم من الثانوي أو من المتوسط أو من كان في حكم ذلك، أو في أثناء الدراسة الجامعية.

شروط في التخصص الموفد له: أن لا يكون في الداخل تخصص يغني عن السفر إلى الخارج. فتاوى ابن باز(١٢٩/٤-١٣٠)

وجَّه الشيخُ رحمه الله رسائلَ النصح لفئات منها:

- الآباء، وذكّرهم بواجبهم تجاه أبنائهم من تربيتهم التربية الصالحة وأمرهم بأداء الشعائر والتحلي بالآداب الإسلامية ونهيهم عن المحرمات وعن الرذائل ووسائلها وغرس الأخلاق الفاضلة في نفوسهم وصيانتهم عن رفقاء السوء وعن المجتمعات الفاسدة.
- الإعلام، فنبّه القائمين على الصحف المحلية إلى المزيد من التيقظ والغيرة على الدين والمجتمع، وعدم نشر الإعلانات الضارة التي تدعو للسفر لبلاد كافرة، أو لا تقيم للأخلاق اعتباراً، والتي تخدم أعداء الدين وتعود بالضرر على المجتمع وأبنائه في دينهم وعقيدتهم وأخلاقهم، وأن الواجب عليهم أن يكونوا وسائل مساعدة في الإصلاح والتوجيه إلى الخير والحق.
- الطلاب، فذكّرهم بالله وما ينبغي أن يكون عليه، من الدين والأخلاق والبعد عن مواطن الريبة.
- أولياء الأمور، فقد كان يدعو لهم بالصلاح، ونصرة الحق، وكان يُخاطبهم ويُراسلهم.
- الدولة، فهي المسؤولة عن أبنائها، وعن إيجاد البدائل لهم في الداخل، وعدم ابتعاثهم للخارج إلا في حالة الضرورة، وفق ضوابط. مجموع فتاوى ابن باز ١٩٩/٤.

ويمكن استنباط النقاط التالية من فتاوى الشيخ رحمه الله في مسألة الابتعاث:

- كرر الشيخ رحمه الله كلمة "الوصية"، "أوصي" وفيهما إشعار بما يحمله الشيخ من النصح لإخوانه، وحب الخير، والتحذير من الشر والفتنة وعواقب الأمور.
- ربط الشيخ بين مسألة الابتعاث لدول الكفر وبين العقيدة، والخطر عليها، وما ينشأ عن ذلك من وجود جيل لديه خلل في مسألة الولاء والبراء للأعداء، إلى جانب الخطر على الأخلاق.
- تنبيه الشيخ لعداوة الدول الكافرة للمسلمين في العقيدة، وأنهم سيدخلون للمسلمين في مسميات ومنظمات لا تُصرّح بمسمياتهم ولا تذكر أهدافهم.

- تأكيد الشيخ على أهل العلم الشرعي، إذ هم الذين يعرفون الخير من الشر، ويعرفون ومن خلال كتاباتهم ما يمكن أن يدسه الأعداء للأمة من المخاطر والشرور.
- أخذ الشيخ بمبدإ سد الذرائع، ودفع المفسدة مقدم على جلب المنفعة، والتحذير المستمر من الابتعاث لدول الكفر تأكيد على أن رأي الشيخ ثابت ونظره ثاقب، وتحذيره يجب حمله محل الجد.
- نقد الشيخ من غير تجريح لأحد، أو ذكر لأعيان، فمراده بيان الحق، لا انتقاص الخلق، إلا إذا احتاج المقام لذكر صاحب البدعة أو الشر، واقتضى المقام التصريح.
- للسفر لبلاد الكفر والإفساد مخاطر سواء على العقيدة أو الأخلاق، فيجب الحذر منه إلا عند الضرورة القصوى.
- الاستدلال من الكتاب والسنة على خطر الإقامة أو المكوث في بلاد الكفر، والمخاطر التي قد تطال المسلم المقيم بين ظهرانيهم، سواء في المحاضرات أو الدروس..
- التحذير من سفر الطلاب إلى تلك البلاد، لاسيما طلاب المرحلتين المتوسطة والثانوية.
- الكتابة مراسلة أو مناولة لمن يهمه الأمر، والحديث في المحاضرات والدروس واللقاءات عن مخاطر السفر للخارج ومفاسده.
- المطالبة إيجاد البدائل المناسبة للطلاب، وعدم ابتعاثهم إلا في تخصصات غير موجودة في الداخل ولا يُوجد ما يُغني عنه وفق ضوابط حتى يُؤمَن عليهم الفتنة والشر.
- التأكيد على العناية باختيار المرافق ممن يُعرف بالفضل والعلم والعقل والاستقامة في الدين.
- أهمية الإشراف على المبتعثين في الخارج ومتابعتهم.
- التحذير من السكن مع الأسر الكافرة أو التي لا تُقيم للأخلاق وتعاليم الإسلام أي اعتبار.
- عامة الناس من الشباب والطلبة الذين لم يتفقهوا في الدين ولم يتعلموا ما يجب عليهم من الدعوة إلى الله والالتزام بما أوجب الله، فالوصية لهم أن لا يُسافروا إلى بلاد الكفرة وأن يحذروا من ذلك.
- التحذير من وسائل الإعلام التي تدعو للسفر والسياحة في بلاد الكفر، وما تقوم به من توزيع نشرات دعائية للسفر وقضاء الإجازات في بلاد الكفر، مرة بداعي السياحة ومرة بداعي الدراسة، وبيان المخاطر المترتبة من ذلك، ومن البرامج المعدة لمن يُسافر لهم، سواء في مكان الإقامة أو نوعية البرامج، أو المرافقين، أو الأهداف المعلنة وغير المعلنة لتلك الرحلات والسفريات، والحذر من طرقهم وأساليبهم الظاهرة والخفية، فقد يتسترون ويعملون بأسماء عربية ومؤسسات وطنية إمعانا في الكيد وإبعادا للشبهة وتضليلا للمسلمين عما يرومونه من أغراض في بلاد الإسلام.
- نُصْح أولياء الأمور بالمحافظة على أبنائهم واسرهم وعدم الاستجابة لطلبهم السفر إلى الخارج.
- إيجاد البدائل المناسبة داخل البلاد سواء للسياحة أو الدراسة أو التنزه.
- تذكير الآباء بواجبهم تجاه أبنائهم من تربيتهم تربية صالحة وأمرهم بأداء الشعائر والتحلي بالآداب الإسلامية ونهيهم عن المحرمات وعن الرذائل ووسائلها وغرس الأخلاق الفاضلة في نفوسهم وصيانتهم عن رفقاء السوء والمجتمعات الفاسدة.
- تنبيه القائمين على الصحف المحلية لمزيد من التيقظ والغيرة على الدين والمجتمع، وعدم نشر الإعلانات الضارة التي تخدم أعداء الدين وتضر المجتمع وأبناءه في دينهم وعقيدتهم وأخلاقهم، وتذكيرهم بما يجب عليهم بأن يكونوا وسائل مساعدة في الإصلاح والتوجيه إلى الخير والحق.

- الدعاء لولاة أمر المسلمين، والمسلمين عامة، ولأهل العلم بالتوفيق للقيام بواجبهم.
- إرسال الشباب إلى بلاد الكفار لغير ضرورة وبلا ضوابط، أو السماح لهم بالسفر إليها، منكر وفيه خطر عظيم، لأن بلاد الشرك فيها ظاهر والمعاصي فيها ظاهرة، والفساد منتشر، والإنسان على خطر من شيطانه وهواه ومن قرناء السوء فيجب الحذر من ذلك.
- من الضوابط التي ينبغي أن تُراعى في المبتعث: أن يكون عنده علم وبصيرة وهدى ليدعو إلى الله، ويتعلم أشياء أخرى تحتاجها بلاده، ويظهر دينه.
- ذكر الشيخُ –رحمه الله– أن العلماء –رحمهم الله– حرَّموا الإقامةَ والقدوم إلى بلاد يعجز فيها المسلم عن إظهار دينه، والمقيم للدراسة، أو للتجارة أو للتكسب، والمستوطن، حكمهم وما يقال فيهم حكم المستوطن لا فرق، إذا كانوا لا يستطيعون إظهار دينهم، وهم يقدرون على الهجرة، وأما دعوى بغضهم وكراهتهم مع الإقامة في ديارهم فذلك لا يكفي، وإنما حَرُمَ السفرُ والإقامةُ فيها لوجوه..، وأنّ من شروط السفر إلى بلادهم: أمن الفتنة بقهرهم وسلطانهم وشبهاتهم وزخرفتهم، وأمن التشبه بهم والتأثر بفعلهم، وأن سد الذرائع وقطع الوسائل الموصلة إلى الشرك من أكبر أصول الدين وقواعده.
- الواجب على الدولة –وفقها الله– مراعاة أن يكون المبعوث ممن لا يخشى عليه لعلمه وفضله وتقواه، وتذكيرها بما يجب عليها تجاه أبنائها، وعدم ابتعاثهم إلى بلاد المشركين إلا عند الضرورة، مع إيجاد البدائل المناسبة لهم في الداخل.

تلخيص بحث منشور

الباحث: خالد بن حامد الحازمي. العنوان: مصطلح فلسفة التربية في ضوء المنهج الإسلامي "دراسة نقدية". مكان النشر: المدينة المنورة. الناشر: الجامعة الإسلامية. سنة النشر: السادسة والثلاثون ١٤٢٤هـ. العدد: ١٢٤.

اشتمل البحث على أربعة مداخل: المدخل الأول: مدخل الدراسة. المدخل الثاني: الغزو التربوي. المدخل الثالث: حقيقة الفلسفة. المدخل الرابع: الفلسفة من منظور المنهج الإسلامي. ثم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: مدخل الدراسة: المقدمة، أهداف الدراسة: الوقوف على حقيقة مصطلح الفلسفة ومعرفة مدلوله وماهيته، وموقف التربية الإسلامية منه. أسئلة الدراسة: ما معنى مصطلح فلسفة التربية؟ ما ميدان الفلسفة الذي تبحث فيه؟ أين ظهر مصطلح الفلسفة أولاً؟ وكيف انتقل إلى المجتمعات الإسلامية؟ ما هو موقف المنهج الإسلامي من الفلسفة. منهج الدراسة: المنهج الوصفي التحليلي، وصف هذا المصطلح وتحليل مكوناته ودلالاته، في الكتابات العلمية التربوية. حدود الدراسة: بيان حقيقة مصطلح فلسفة التربية، وإيضاح مدلولاته الاصطلاحية ومفاهيمه وميادينه التي يستخدم فيها، وبيان موقف المنهج الإسلامي من ذلك مع عدم الخوض في النظريات الفلسفية، وفي روادها قديماً وحديثاً.

المبحث الثاني: الغزو التربوي: أساليب الغزو التربوي:- مدارس الإرساليات التي انتشرت في أنحاء العالم الإسلامي، ثم امتدت إلى الجامعات سالكة في ذلك خطين: الإرساليات البروتستانتية الأمريكية، والإرساليات الكاثوليكية الفرنسية، وبدأت هذه المدارس دينية صرفة، ثم تحولت إلى علمانية نتيجة تحول التعليم الغربي بعد الثورة الفرنسية من ديني إلى علماني. – ما يقدمه الغرب

للمسلمين من نماذج حضارية براقة مشوقة بالإغراء من خلال السينما والمسرح والصحافة والأفلام والقصص المنحرفة، ومن خلال الأزياء وبيوت عرضها، ومجلات لنشرها، إضافة إلى الاحتكاكات الثقافية التي تغري الشباب بمسايرة حياة المجون الأوربية. – استغلال الشباب المسلم الذي انبهر ببريق الحضارة الغربية باعتبار أنها تمثل المنهج السليم للرقي والتقدم كما تصورها.

أبرز دوافع الاستسلام للغزو التربوي: الشعور بالعجز، أو النقص في بعض الجوانب، وازدواجية الشعور بقدرة المنهج الإسلامي على الارتقاء بالأمة إلى لمستويات التقدم مع الشعور والانبهار بتقدم الغرب وقدراته دون التفرقة بين السقيم والسليم يجعل المرء في فصام تربوي بين إقرار وعدم تطبيق، واقتباس، إضافة إلى الأخذ عن الغرب دون دراسة واعية مصححة على معايير الإسلام.

استخدام المصطلحات الغربية: كثر لدى المجتمعات الإسلامية استخدام المصطلحات الغربية في معظم شؤون الحياة، سواءً في التعليم أو الاقتصاد أو غيرها، وبعضهم يفاخر باستخدامها ويغمط اللغة العربية حقها في قدرتها وسعتها لكل المجالات، وكثير من الأنظمة الأجنبية يشكل تهديداً لقدراتنا على الارتباط بديننا وما نؤمله من أن نكون أمة تحترم ذاتها، وترتب على هذه الازدواجية آثار بعيدة المدى، أهمها الانشطار والثنائية في الكيان الاجتماعي والفكري، ومن تلك المصطلحات الغربية:

الديمقراطية: ويستعمل في الغرب بالمعنى الذي أعطته إياه الثورة الفرنسية، ويقصد به الدلالة على المساواة في الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية لجميع المواطنين، ورقابة الأمة على الحكومة عن طريق هيئة نيابية يشترك في انتخاب أعضائها جميع البالغين من أفراد الشعب، ويشمل أيضاً حق الشعب المطلق في أن يشرع لجميع الأمور العامة بأغلبية أصوات نوابه، كما يقوم على إعطاء الحريات في العقيدة والرأي والتملك، وهذه الصورة عند التحليل تبدو خيالية، بعيدة عن الواقع الذي يشهد باصطدام هذا المذهب بمبادئ الإسلام القائم على أن الله سبحانه وتعالى هو المشرع الأول وإن الحكم لله رب العالمين.

ومعاني الديمقراطية: مخالفة لأحكام الإسلام ومناقضة له، بل ليس لها أي واقع حتى عند الديمقراطيين أنفسهم، وبعض المسلمين المعاصرين يكتب أن الإسلام يدعو إلى الديمقراطية! والذين ينطقون بها ويلهجون بذكرها قل ما يوجد فيهم من درس الإسلام، ونظر في تعاليمه، فخصائص الديمقراطية ليست من الإسلام في شيء، فلا يصح إطلاق كلمة الديمقراطية على نظام الدولة الإسلامية، وأيضاً من شرائع الدين العلاقة بين الحاكم والمحكوم بينما الديمقراطية هي حكم الشعب. الاشتراكية: الاشتراكية نظام لعلاج المشكلات الاقتصادية بمبادئ تتعارض مع الإسلام. فهي تقوم على تحقيق مبدأ قاعدة المساواة الفعلية بين الأفراد، وإلغاء الملكية الخاصة الفردية، كلياً أو جزئياً، كما أن الفرص الخاصة، والحظ والإرث هي من الأسباب غير المشروعة للتملك والامتياز، وأيضاً الأرض ملك الأمة لا يجوز توزيعها ولا احتكارها ولا توريثها، والتأميم. بعض الكتاب المسلمين المعاصرين يقولون بأن الإسلام اشتراكي في اتجاهاته؛ لأنه يرمي لإيجاد نوع من النظام، يضمن للمواطنين فرصاً متكافئة في الضمان الاقتصادي، وتوزيعاً منصفاً للثروة القومية، ونقول إن الإسلام يعارض الاشتراكية التي تعني الهيمنة الجبرية على كل مظاهر الحياة الاجتماعية، وتقديم الاقتصاد على الأخلاق والآداب، والهبوط بقيمة الشخصية الإنسانية حتى يصبح الإنسان مجرد آلة للإنتاج القومي فقط، وتحط من قيمته وحريته في الكسب والتملك والميراث، فالإسلام حقق مبدأ العدل بين الناس وفق ضوابط شرعية وقواعد ربانية، وأسس للأسرة قواعد لتقسيم الميراث، وبيّن الحقوق المرعية بين أفراد المجتمع.

المبحث الثالث: حقيقة الفلسفة: مفهوم الفلسفة: أي محب الحكمة، والفلسفة "دراسة المبادئ الأولى، وتفسير المعرفة تفسيراً عقلياً"، والدلالة الاصطلاحية للفلسفة: مجموعة من الأفكار المترابطة في صورة مذاهب فكرية تتسق في بحثها عن الحقيقة الكونية،

وظواهر الطبيعة البشرية، وتعرف بأنها "الوصول عن طريق العقل إلى فهم المجهول، والإجابة عن الأسئلة التي يعجز العلم عن بحثها والفصل فيها"، وتتخذ من العقل مرتكزاً لها ومحوراً تدور في حدوده؛ فلا تبدأ بمسلمات مهما كان مصدرها. المفهوم الغربي: "الفلسفة ليست الحكمة ذاتها، ولكنها حب الحكمة، فالجاهل عند بحثه عن الحكمة يكون أقرب إلى الفيلسوف منه إلى العالم القانع بمعرفته". وحب الحكمة في المفهوم الإسلامي قول وعمل، قول الحق وفعل الصواب، وفي المذهب الغربي هي البحث وليس العلم ونتيجته، سواء كان صادراً من عالم أو جاهل، حقا أو باطلا، وأدوات البحث عن الحكمة هي إثارة السؤال والمناقشة والجدل ووضع الفروض بحسب الاعتقاد، ومن أي شخص كان، وهذا مرفوض لعدم اتفاقه مع العلم الصحيح لأسباب عدة، منها: أنه لا يفرق بين بحث العالم والجاهل، فيترك للجاهل المجال في البحث عن الحكمة دون استعداد مسبق بسلاح العلم، فهو مدعاة إلى الجنوح في الخيال وإثارة أسئلة لا يمكن لحواسنا أن تدرك أو تتوصل إلى الإجابة عنها، كما يترك المجال للجاهل أن يبني أسئلة على فروض نابعة من اعتقاده، واعتقاده أقرب للخطأ ، فالفلسفة بمفهومها الغربي تبحث في الأمور النظرية وما وراء الطبيعة محكمة للعقل، والاعتماد على العقل فقط يؤدي إلى التردي بين أمواج الضلال العاتية، وأخذ بهذه الفلسفة بعض المسلمين فاستخدموها كمصطلح في مناهج وكتب؛ فقدموا للأجيال فكرا ومصطلحات لا تتفق مع المنهج الإسلامي. الفلسفة عبر العصور: ظهرت وترعرعت عند قدماء اليونان ثم توارثها الغربيون كعقيدة إلى عصرنا الحاضر؛ لإشباع الدافع الديني الروحي الذي لم توفره الكنيسة، ورغبتهم فيما يملأ ذلك الفراغ الذي يحسون به في جميع مراحل حياتهم، وبالتالي امتدت إلى جميع مناهجهم لاعتقادهم بأنها السبيل الأوحد الذي ينير لهم الطريق، وترجع بدايتها إلى نحو ستة وعشرين قرناً، وأول من تفلسف هو طاليس الذي عاش في القرن ٦ ق.م، والذي يرد العالم إلى الماء كأصل وحيد له، ثم جاءت مذاهب السقراطيين وكلها تبحث في الإنسان والأخلاق مقتدية بأخلاق سقراط نفسه، ثم جاء أفلاطون فقال بوجود إله واحد هو الخير الأسمى، واخترع المثل الكلية التي يرجع إليها وجود الأشخاص الجزئية، وسلمها قيادة الخلق والإبداع، وجعل من الأشياء ظلالاً تمثلها كجزئيات، ثم تلاه تلميذه أرسطو وقال بوجود إله، ولكنه جعل وظيفته أن يدفع هيولي العالم وصورته للحركة في أول مرة، وسلم للهيولي مع الصورة زمام الخلق والإبداع والتنويع والتقدير والحركة والصيرورة، وبدأت الفلسفة اليونانية بالبحث في أصل الكون وطبيعته، والمعرفة، ثم أصبح معناها الجمع بين الحكمة الأخلاقية ودراسة المبادئ التي تقوم عليها دراسة النفس الإنسانية من حيث المعرفة والسلوك، والعقل هو الذي يجمع الإحساسات ويضعها بعضها مع بعض، ويعارض بعضها ببعض، ويدرك العلاقة بينها، ويصدر عليها أحكاماً مغايرة للحس، ثم أتت المرحلة الوسطى من أطوار الفلسفة وتمثلها فترة القرون الوسطى حيث كانت مجرد تقليدٍ محضٍ للفلسفة اليونانية، ومهمتها محاولة التوفيق بين أفلاطون وأرسطو، وبين هؤلاء والديانة المسيحية أو اليهودية، أو الإسلامية من ناحية أخرى، وأول من نقل الفكر الفلسفي إلى العالم الإسلامي النصارى واليهود، أمثال: آل بختيشوع، وآل حنين من نصارى الحيرة، وقسطا بن لوقا البعلبكي من نصارى الشام، وآل مسرجويه من اليهود، ويعتبر دخول الفلسفة للمسلمين في العصر العباسي الأول من ١٣٢-٢٣٢هـ، حيث نقلت العلوم الأجنبية الشائعة إلى اللغة العربية، واختاروا من كل أمة أحسن ما لديها، ولكنهم اختاروا من اليونان فلسفتهم، وهناك من يرى أن المحاورات والمناظرات والمناقشات في المذاهب هي نوع من الفلسفة. أثر الفلسفة في المجتمع: تؤدي إلى تقسيم المجتمع شيعاً وأحزاباً، ومن النماذج الدالة على ذلك ما يلي: أولاً: جماعة إخوان الصفا: من أبرز غاياتهم مزج الدين بالفلسفة، فالعلوم الحكمية والفلسفة والشريعة أمران إلهيان يتفقان في الغرض المقصود منها. ثانياً: جماعة المعتزلة: يعزون إدراك ومعرفة كل شيء إلى الحس والنظر العقلي، فهم لا يرون شيئاً إلا ويمكن معرفته بالحس أو النظر العقلي، فالعقل يُوجِب، ويُحَسِّن ويُقَبِّحه، فيعتبرونه المقياس الوحيد لمعرفة الحقيقة، وإذا عجز عن الوصول إلى معرفة جازمة يلجأ إلى التقليد ليكون ظناً صادقاً، وأخيراً الاعتقاد يتبع النتائج التي يصل إليها العقل، بواسطة قوته أو معتمداً على التقليد.

الفلسفة الحديثة: (بيكون وديكارت وإسبينوزا) وتميزت بتحرير التفكير الإنساني من كل سلطة، وفصل الفلسفة عن الدين أو العقل والعاطفة وتحديد سلطة كل منها، وانتهت لمذهبين متعارضين: الواقعي: ويقول بوجود الأشياء الخارجية فقط، وأن لا شيء وراءها من عقل أو روح أو إله، والمثالي: ويقول علة وجود الأشياء هو مجرد تفكيرنا بأنها موجودة فإن لم يوجد الفكر فيها فلا وجود لها. ميدان الفلسفة: البحث عن حقيقة كل شيء، لمعرفة بواطن الأشياء، وأصولها المحسوسة، وغير المحسوسة التي ندركها والتي لا ندركها، وحتى في صفات الخالق جل شأنه. ووسيلتهم: العقل والظن والجدل، والإسلام أوضح لنا علاقة الإنسان بخالقه، وبالكون وبمجتمعه، وفي منهج التربية الإسلامية يكون البحث في العلوم والمعرفة وفق الأساليب العلمية المعتبرة التي تتفق مع ديننا الإسلامي ، ولم يمنع الإسلام البحث والاستقراء في المجالات النافعة، بل شجع عليها، وأما التعامل مع المعرفة بالطرق الفلسفية التي يتعارض أسلوبها وميدانها مع الإسلام، فالواجب الابتعاد عن ذلك البتة؛ لأن المناقشة والبحث العلمي، الذي يعتمد على ما جاء به الإسلام يختلف تماماً عن المنهج الفلسفي الغربي؛ لأن الفلسفة تتعارض مع الإسلام في أسلوبها، وبعض ميادينها، بل لا اتفاق بين أربابها في معناها وأسلوبها، فأصحابها مختلفون غير متّفقين.

المبحث الرابع: الفلسفة من منظور المنهج الإسلامي: أولاً: نماذج من الأخطاء والأخطار الفلسفية: ابن مسكويه: جعل من مداومة التفكير والنظر في الموجودات ما قد يصل بالإنسان إلى درجة (النبي).. ومن الأخطاء: استخدام هذا المصطلح دون مضمونه، باسم: فلسفة التربية، والفلسفة الإسلامية للتربية، والأصول الإسلامية لفلسفة التربية، وقد تستخدم بمعنى وجهة النظر الإسلامية، والحقيقة إنه لا حاجة لهذا المصطلح البتة؛ لأنه يحمل في طياته معانٍ ودلالات سبق إيضاحها في معنى الفلسفة، ونتيجة لذلك وقع البعض في أخطاء منها قولهم: "إن الفلسفة إما إلهية أرسلها الله تعالى إلى عباده أو وضعية".. كما أن هناك من يقحم مصطلح الفلسفة في عناوين المصنفات والرسائل العلمية دون استخدام المضمون ودلالات هذا المصطلح مثل كتاب: فلسفة التربية الإسلامية في القرآن والحديث، مع أن محتوياتهما بعيد عن الفلسفة، وكتاب ماجد عرسان (فلسفة التربية الإسلامية) كل ما جاء فيه لا يمكن أن يخضع للفلسفة البتة، وليس له علاقة بها، غير أن الدارج إضفاء مصطلح الفلسفة على المصنفات التربوية. ثانياً: إلصاق الفلسفة بالإسلام: فحاول بعضهم كابن سينا التوفيق بينه وبين والفلسفة اليونانية، ثم حاولوا إلصاق الفلسفة بالإسلام. ثالثاً: آراء بعض العلماء في الفلسفة: واجه عدد من علماء المسلمين النداءات والافتراءات الفلسفية بالتصدي لها قولاً وعملاً، وأنها لا أساس لها في الإسلام، وأنها عقيدة من رضي بغير الإسلام ديناً ومنهاجاً، وكشفوا مغازيها وعوارها كابن تيمية وابن قيم الجوزية والإمام الشافعي والإمام الغزالي وأنور الجندي ود. عبد الرحمن صالح عبد الله.. ونستنتج أن إضافة الفلسفة أو مصطلحها إلى الإسلام أو إضفاء الإسلام عليها غير مقبول، بل حتى في مجال الاصطلاح لا ينبغي استخدامها لمخالفتها للمنهج الإسلامي، ولما نتج عنها من أخطاء عندما ربط بعض المسلمين علومهم بالفلسفة، إما بقصد التوفيق بينهما، أو اختيارها كمدرسة فكرية، يضاف إلى الأفكار الهدامة في العصر الحاضر التي تؤدي إلى التشكيك على المدى البعيد في أن القرآن والسنة ما هي إلا فلسفة مثلها مثل الفلسفة اليونانية.

الخاتمة: مر الاتصال واللقاء بين المجتمع الإسلامي والمجتمع الأوربي في العصر الحديث بمراحل متعاقبة، أولها مرحلة الذهول والدهشة والإعجاب والشعور بالنقص، ثم كانت مرحلة النقل والتقليد والاقتباس، ومرحلة تتراوح بين التوفيق بين القيم الغربية والقيم الإسلامية تارة والصراع بينها تارة أخرى، وأكدت هذا الدراسة أن مصطلح الفلسفة قائم على البحث في علل الأشياء وكنهها ومحاولة الوصول عن طريق العقل إلى فهم المجهول، والإجابة عن الأسئلة التي يعجز العلم عن بحثها والفصل فيها، وذلك في منأى عن مصادر الإسلام وهديه، وأن العقل له حدود لا يمكن أن يتجاوزها مهما أوتي من علم وحكمة، فالواجب إخضاعه للشرع،

والسير في هديه وتحت رعايته ومظلته، كما أن هناك من يتبنى استخدام هذا المصطلح دون قصد لمعناه ومدلوله، إلا أن لذلك آثاراً سلبية وسيئة خاصة إذا نسب هذا المصطلح إلى الإسلام أو للكتاب والسنة، ثم إن في استخدامه تبعية لا حاجة لها، بل إن حذف هذا المصطلح من بعض نصوص الكتب لا يغير من دلالاتها ومرامي كلامها، لذا يلزم عدم استخدام هذا المصطلح خروجاً من التبعية أولاً، ثم بعداً عن دلالاته ومعانيه الحقيقية التي لا تتفق مع المنهج الإسلامي، إضافة إلى عدم الحاجة إليه البتة، والواجب محاربة كل محاولات التوفيق بين المنهج الإسلامي، وبين منهج بني على نظريات من وضع البشر، تشتمل على الكثير من القضايا المخالفة للإسلام، هذا بالنسبة للنتاج الفكري، أما بالنسبة للنتاج المادي فنأخذ به يفيدنا ولا يؤثر في أصالتنا، وكذلك النظريات فهي نتاج فكري.. النتائج: حرص أعداء المسلمين على نشر أفكارهم بين المسلمين، وعداؤهم وحقدهم على الإسلام والمسلمين، وأن الفلسفة نبتت ونشأت وترعرعت قديماً في المجتمع اليوناني، وأن الفكر الغربي لازال يحتفظ بالفلسفة اليونانية إلى يومنا هذا، وأن الفلسفة منهج قائم على العقل المجرد في فهم المجهول، والإجابة عن الأسئلة التي يعجز العلم عن بحثها والفصل فيها، وأنها تبحث في ماهية الأشياء بقصد التوصل إلى كنهها بدون مسلمات شرعية، وأنها لا تعني الحكمة في المفهوم الغربي، بل تعني حب الحكمة والبحث عنها بالأداة العقلية دون مسلمات شرعية، وفي المفهوم الإسلامي تعني الإصابة في القول والعمل، وميدانها ليس مقصوراً على أهل العلم، بل لكل شخص أن يخوض ميدان الفلسفة وإن كان جاهلاً، وأن فلسفة التربية جزء من المفهوم العام لمصطلح الفلسفة، وأن مصطلح الفلسفة لا يتفق مع المنهج الإسلامي، لكونه لا يقوم على المسلمات الشرعية، ويهدف إلى إخضاعها لميدان الفلسفة ومنهجها العقلي، وأن استخدم بعض المسلمين مصطلح الفلسفة في كتاباتهم التربوية لمجرد التبعية، دون قصد دلالته ومعناه، وأن بعض علماء المسلمين الأوائل والأواخر استخدام المنهج الفلسفي حتى في مجال الاصطلاحات، وأن استخدام مصطلح الفلسفة قد يؤدي إلى آثار سلبية على المفاهيم الإسلامية التربوية. ثانياً: التوصيات: التنبه لمضامين المصطلحات غير الإسلامية وعدم استخدامها، كما يجب على المؤسسات التربوية، ومراكز الأبحاث العلمية تسليط الضوء على مصطلح الفلسفة ودلالاته بالأبحاث العلمية، وإقناع الآخرين بالمفهوم الخاطئ، والاهتمام بالدراسات النقدية التي تتناول موضوع الفلسفة من خلال الرسائل والأبحاث العلمية، وغرس الاعتزاز بالمصطلحات الإسلامية لدى المسلمين، وعدم التشجيع على استخدام المصطلحات الأجنبية ذات المضامين المتعارضة مع المنهج الإسلامي، وأن تتبنى الجامعات محاربة استخدام الألفاظ الأجنبية المخالفة للإسلام، كما يجب على المجمعات اللغوية في المجتمع العربي إعداد معجم بالمصطلحات الأجنبية المعربة، ونشر وتسهيل تداولها بين الأوساط العلمية.

قراءة نقدية لكتاب أو رسالة زغل العلم، للإمام الذهبي رحمه الله تعالى

أولاً: تعريف بالمؤلِّف: هو الإمام الحافظ شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، ولد سنة ٦٧٣هـ، وتوفي سنة ٧٤٨هـ بدمشق، حافظ، مؤرخ، علامة محقق. تركماني الاصل، من أهل ميافارقين، رحل إلى القاهرة وطاف كثيرا من البلدان، وكف بصره سنة ٧٤١ هـ تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المئة، منها "دول الإسلام" و "تاريخ الإسلام الكبير" ٣٦ مجلدا، و "سير النبلاء" و "الكاشف" و"الكبائر" و "تهذيب تهذيب الكمال" و "ميزان الاعتدال في نقد الرجال" و "زغل العلم" –وهو الرسالة التي بين أيدينا– و "معرفة القراء الكبار" وغيرها الكثير من المؤلفات النافعة. [الزركلي، ٢٠٠٢م. ج٥، ص ٣٢٦].

قال الدكتور بشار عواد معروف في مقدمة سير أعلام النبلاء: "سابعاً: المنهج النقدي: "كان الإمام الذهبي من المعنيين بالنقد كل العناية، بحيث صار يحتل مكاناً بارزاً في كتبه، وألّف الكتب النافعة الخاصة به، ولذلك وجدناه عظيم الاهتمام به في كتبه، ومنها

كتابه النفيس "سير أعلام النبلاء" مارسه في كل مادته، واعتبره جزءً أساسيًّا من منهجه في تأليف الكتاب، والذهبي إنما ينطلق في هذه العناية وذاك الاهتمام من تكوينه الفكري المتصل بدراسة الحديث النبوي الشريف وروايته ودرايته، والذي يؤكد ضرورة تبيين أحوال الرواة، ودرجة الوثوق بهم بتمييز الصادقين منهم عن الكاذبين، فسحبه بعد ذلك على جميع كتابه، سواء أكان ذلك في تراجم المحدثين، أم في تراجم غيرهم وسواء أكانوا من المتقدمين، أم من المتأخرين.." [الذهبي، ١٤٠٥هـ، المقدمة، ص١١٨]

وقال أيضاً [ص١٣٤]: "ومع ما كان للذهبي من إعجاب بشيخه ابن تيمية فإنه أخذ عليه تغليظه وفظاظته وفجاجة عبارته وتوبيخه الأليم المبكي المنكي المثير النفوس" كما أخذ عليه "الكبر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار، وقد رأى في بعض فتاويه انفرادا عن الأمة، قال: "وقد انفرد بفتاوى نيل من عرضه لأجلها، وهي مغمورة في بحر علمه فالله تعالى يسامحه ويرضى عنه فما رأيت مثله، وكل أحد من الأمة فيؤخذ من قوله ويترك فكان ماذا ؟." وقد بلغ حرص الذهبي في النقد وشدة تحريه أنه تكلم في ابنه أبي هريرة عبد الرحمن فقال: إنه حفظ القرآن، ثم تشاغل عنه حتى نسيه".

وقال في شيخه ابن تيمية: "وهكذا كان والله شيخنا،بقي أزيد من سنةٍ يفسر في سورة نوح، وكان بحراً لا تكدره الدلاء رحمه الله".

ثانياً: تعريف بالمؤلَّف: قال محقق زغل العلم محمد العجمي في مقدمته عليه [ص ٧-٨]: "قد تناول – أي الإمام الذهبي رحمه الله– في هذه الرسالة العلوم المعروفة، وبين رأيه فيها وأحوال المهتمين بها في زمانه.. وتكلم عن فقهاء المذاهب الأربعة إلى آخر ما ذكر من تلك العلوم.. وأن حالهم تلك مخالفة لسلوك الرعيل الأول من الصحابة والتابعين والأئمة الأوائل.. وشدد النكير على المقلدة والجهلة.. وذكر الذين اتخذوا العلم وسيلة وغرضا لتحصيل ملذات الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل الى الجاه.. وأوضح أن العلم إذا لم يكن للعمل فلا فائدة منه، وبين طريقة السلف في طلبهم العلم وتحصيله.."

ثالثاً: نظرة عامة على الكتاب أو الرسالة: وقبل البدء في الكتاب نتناول اسمه، زغل العلم، فقد قال ابن فارس: زغل: الزاء والغين واللام أصلٌ يدلُّ على رَضاع وزَقٍّ، وما أشبهه. يقال أَزْغَلَ الطّائِرُ فَرخَه، إذا زَقّه.. [ابن فارس/ ١٣٩٩هـ، ج٣، ص ص١٢-١٣]، وزَغَلَ الشيءَ زَغْلاً وأَزْغَلَهُ صَبَّهُ دُفَعاً ومَجَّهُ، وزَغَلَت المزادةُ من عَزْلائها صَبَّتْ، والزُّغْلة بالضم الدُّفْعة من البول وغيره، وأَزْغَلَتِ الناقةُ ببولها: رَمَت به وقَطَّعَتْهُ زُغْلة زُغْلة، والزُّغْلة ما تَمُجُّه من فيك من الشراب.. وأَزْغَل الطائرُ فَرْخَه إذا زَقَّهُ وأَزْغَلَتِ القَطاةُ فَرْخَها زَقَّتْه، والزُّغْلُول الخفيفُ من الرجال، والزُّغْلول الطِّفْل أَيضاً وجمعه زَغالِيل، ويقال للصِّبيان الزَّغالِيل، [ابن منظور، ١٤١٤هـ. ج١١، ص٣٠٤]، والزغل: الغش. [مصطفى وآخرون، ج١، ص٣٩٥]، فيظهر من هذا الاستقراء أن الزغْل يُطلق ويُراد به: الغش، وما يُمجّ ولا يُقبل، وصبّ الشيء، والدفعة من البول، والخفيف من الرجال، وهذه المعاني يغلب عليها الاستخدام فيما لا يُناسب أو لا يُقبل، أو يُعاب، ومنه جاءت رسالة الإمام الذهبي: زغْل العلم، ويُحتمل أن يُراد منه: غِشّه، أو ما يُمجّ منه ولا يُقبل، أو ما يُرد ولا يُرضى.

وبنظرة عامة على المؤلَّف نلاحظ أن المؤلِّف رحمه الله تعالى: ۩بدأ كتابه بالتسمية ثم حمد اللهّ تعالى. ۩ شرع في موضوع كتابه، فذكر أن في كل طائفة من علماء هذه الأمة ما يذم ويعاب، فتَجَنَّبْه..۩ تحدث في طائفة من العلوم فذكر من كل علمٍ طائفةً مصيبةً وأخرى مخطئةً، عرّض بمخالفات، مع تناول بعض الأمثلة. ۩ ظهر على الإمام الذهبي تواضعه والحط من قدر النفس في كتابه، مستدلاً، سائلا ربَّه السلامةَ، وطالبا منه العونَ. ۩ تناول تسعة عشر مبحثا في كتابه لفنون العلم، بدأها بعلم: القراءة والتجويد، وختم بـ علم الوعظ. ۩ المباحث التسعة عشر التي تناولها هي: القراءة والتجويد، علم الحديث، الحنفية، الشافعية،

المالكية، الحنابلة، علم النحو، علم اللغة، علم التفسير، أصول الفقه، علم أصول الدين، علم المنطق، علم الحكمة، الفرائض، علم الإنشاء، علم الشعر، علم الحساب، علم الشروط، علم الوعظ. ۞ سهولة لغة الكتاب، ووضوح مراد المؤلف مع إيراد الأمثلة والشواهد. ۞ الاختصار فالكتاب مختصر ويمكن حفظه واستظهار ما جاء فيه. ۞ تناوله لأغلب وأهم مباحث العلم، أو ما هو شائع بين الطلاب وطالبي العلم.

رابعاً: وقفات نقدية مع الكتاب: يمكن إجمال الرؤية النقدية للإمام الذهبي في مؤلَّفه في النقاط التالية:

- سعة علم الإمام الذهبي وطول باعه في العلم، ولدت عنده ملكة نقدية دقيقة، سواء في الأعيان كالرجال، أو العلوم..
- موضوع الكتاب هو نقد بعض العلوم، وأهلها، الذين وقع منهم ما يُعاب؛ فيحذر منه طالب العلم.
- تناول تسعة عشر مبحثاً في فنون العلم، بدأها بالقُرّاء والتجويد وختم بالوُعّاظ.
- ذكر في بعضها ضربين من أصحاب الفنِّ، طائفة مصيبة، وأخرى مخطئة، وأحياناً يذكر طائفة ثالثة مقتصدة.
- فصّل في بعضّ العلوم وأطنب، واختصر في بعضها وأوجز.
- تناول في نقده رجال بعض العلوم، وفي المقابل تناول بعض العلوم نفسها كالمنطق.
- نقد العلومَ التي تناولها، ورجالها، وطلابها، والكتب، وقصور الهمة في الطلب والرحلة في العلم، والمقصَد من طلب العلم.
- إدراكه للعلوم التي تناولها، وبروعها فيها، أو بلوغه مبلغاً مكّنه من الحديث عنها وفي تفاصيلها.
- إدراكه للقراءات القرآنية وحفظه القرآن بها، وطلبه علو السند، والرحلة في ذلك، مكّنه من معرفة الجوانب التي ينبغي على مُقرِئ القرآن تجنبها، والبعد عنها، كما يظهر ذلك من خلال نقده لتحرير بعضهم ومبالغته في تحقيق التجويد، وكذا حديثه عن قراءة حمزة رحمه الله.
- حب الخير للناس، وبذل النصيحة، وذكر الملاحظات حتى تُجتنب، والحسنات حتى تُعمل، مع إنصاف وعدل وحياد.
- التنبيه على ما ينبغي أن يُحدثه العلم في العالم والمتعلم، من التأثر والخشية، ولا يصرفه تحقيق العلم وتحرير مسائله عن تفويت التأدب بما يقرأ أو يسمع، وما ينبغي أن يكون عليه الحال حين المقال.
- دقة وصفه لبعض أرباب العلوم، وتجليته لحالهم، وكأن القارئ ينظر إليهم، ما يدل على معايشته ومعاينة لبعض تلك الأحوال، ومقابلته لهم.
- الجمع بين طلب العلم وتدريسه، هيأ للإمام ملكة قوية في نقد العلم، وبيان ما ينفع منه، وما قد يُؤدي بصاحبه، من خلال سوء سلوكه، وعدم تمثله لأخلاق العالم والمتعلم.
- تحليل العلوم التي تناولها، مع بيان منزلة كل منها، وبيان مزيته، وعلو قدره.
- التحذير من بعض العلوم التي قد تكون وبالاً على صاحبها كعلم المنطق.
- لم يغفل وهو يتحدث عن بعض العيوب في المشتغلين بالعلم، أن ذكرهم لله تعالى وصلاتهم على نبيه ﷺ في حد ذاته أمر محمود، وخير مرجو.
- التحذير لطالب العلم من طول الأمل، وتأخير العمل.
- التنبيه على أهمية استصحاب النية الصالحة، والهمة الصادقة في طلب العلم.
- تذكيره بأهمية أن يكون الطالب ناقداً مبصراً حافظاً واعياً، كما في قوله: "وأي خير في حديث مخلوط صحيحه بواهيه، وأنت لا تفليه ولا تبحث عن ناقليه، ولا تدين الله به".

- ذكره لبعض المؤلفات النافعة في بعض العلوم حتى يستفيد منها الطالب والقارئ، فكأنه حين يذكر خطأً يفتح أبواباً للتصحيح، وأخرى للسبيل الذي ينبغي أن يُسلَك.
- وصفه لبعض حالات المدرسين للعلوم، كالنوم، والغفلة، وعدم إعطاء العلم حقه من احترام المكان.. يدل على سعة سماعه وكثرة تنقله بين البلدان ومشايخ العلم، كقوله: "فإيش السماع على جهلة المشيخة الذين ينامون والصبيان يلعبون، والشبيبة يتحدثون ويمزحون، وكثير منهم ينعسون ويكابرون، والقارىء يُصَحِّف، وإتقانه في تكثير أو كما قال، والرُّضَّعُ يَتَصَاعَقُون".
- ترغيبه في طلب علو الإسناد والسماع، وحثه عليه، كما في قوله: "فما شممتَ للإسلام رائحةً، ولا رأيتَ أهلَ الحديث، فأوائلُهم كان لهم شيخٌ عالِ الاسناد، بينه وبين اللهِ واحدٌ، معصومٌ عن معصوم، سيدُ البشر عن جبريل عن الله ﷻ".
- تصنيفه لأهل الفضل والعلم، كالرعيل الأول كأبي بكر وعمر وابن مسعود ﷺ، وكوصفه لأبي هريرة بالحافظ، وكأهل رواية الحديث مثل: مسروق وابن المسيب والحسن البصري والشعبي وعروة، وكأرباب الرواية والدراية، والصدق والعبادة والإتقان والزهادة، الذين جمعوا بين خصال الخير، مثل الزهري وقتادة والأعمش..
- معرفته بالتاريخ والرجال، وطبقات الرواة، فهو ناقد لهم، ومؤلفاته في الرجال معروفة ومعتبرة، ونقده لهم دقيق، ومن ذلك ما ذكره عن رواة الحديث كأصحاب الكتب الستة ومَن عاصرهم بقوله: ثم تناقصَ هذا الشأنُ في المائة الرابعة بالنسبة إلى المائة الثالثة، ولم يزلْ ينقصُ إلى اليوم.
- قوة ودقة نقده، كقوله: "فأفضلُ مَن في وقتنا اليوم من المحدثين على قِلَّتِهم نظيرَ صِغَار من كان في ذلك الزمان على كثرتهم –يعني ما بين المئة الأولى والثانية–"، وكذلك نقده الدقيق لأئمة المذاهب الفقهية كوصفه الحنفية بالتدقيق والذكاء والرأي.
- سبره لأحوال الفقهاء، ومعرفته بواقع فقههم وتفريقه بين الحفظ والفهم، كما في قوله: "وكم من رجل مشهور بالفقه والرأي في الزمن القديم أفضل في الحديث من المتأخرين، وكم من رجل من متكلمي القدماء أعرفُ بالأثر من سنية زماننا".
- ضرب المثال بأسماء علماء معاصرين كالإمام ابن دقيق العيد ، والحافظ شرف الدين الدمياطي ما يدل على تجرده من حظوظ النفس، وبعده عن الحقد والحسد والكبر، وما قد ينتاب العا لم حين يذكر الأقران والأنداد.
- العدل في تناول الخصوم والفرقاء، ومن قد يكون بينه وبينه اختلاف.
- استحضار ذكر الله واستصحاب الخوف منه يظهر في كل فقرة يتناولها، فلم يُنسِه النقد وذكر بعض معايب الطلب من بيان ضعف الحال، والعجز، كقوله: "الله يستر والمرء مع من أحب، والسعيد من نهض وأهب، وعلى الطاعة أكب، والله الموفق والهادي".
- التحذير من التقليد الأعمى القائم على غير دليل، كقوله: "فالله ما أوجب عليهم تقليدَ إمامِهم، فلهم أن يأخذوا منه ويتركوا".
- التعريض ببعض الأمور العظام التي قد تقع من بعض الفقهاء، ويترتب عليها أحكاماً وحدوداً، كالدماء والتكفير
- الوعظ والإرشاد كما في قوله: "فيا هذا إذا وقفتَ بين يدي الله تعالى فَسَألكَ: لِمَ أبحتَ دمَ فلان، فما حجتك ؟ إن قلتَ: قلّدتُ إمامي، يقول لك: فأنا أوجبتُ عليك تقليدَ إمامك؟! ثبت أن النبي ﷺ قال: "أول ما يقضى بين الناس في الدماء"، وفي الحديث: "لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يتند بدم حرام"، نعم. من رأيته زنديقاً عدواً لله فاتقِ اللهَ، وأرِقْ دمَه؛ ابتغاءَ وجهِ الله بعد أن تستفتيَ قلبَكَ، وتستخير اللهَ فيه".
- الإشارة للمقاصد الشرعية والقواعد الأصولية، كقوله: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، واحْتَطْ لدينك، ولا يكن همُّك الحكمَ بمذهبك، فمن اتقى الشبهاتِ فقد استبرأ لدينه وعرضه، فإذا عملتَ بمذهبك في المياه والطهارة والوتر والأضحية، فأنتَ أنتَ، وإن كانتْ همتُك في طلب الفقه الجدالَ والمراءَ والانتصارَ لمذهبك على كل حال وتحصيل المدارس والعلو، فما ذا فقْهاً أُخرويًّا،

بل ذا فقه الدنيا، فما ظنُّك تقول غدا بين يدي الله تعالى: تعلمتُ العلمَ لوجهكَ وعلَّمتُه فيكَ، فاحذر أن تغلط وتقولها فيقول لك: "**كذبت، إنما تعلمتَ ليقال عالم، وقد قيل، ثم يُؤمَر بك مسحوباً إلى النار**". فلا تعتقد أن مذهبك أفضل المذاهب وأحبها إلى الله تعالى، فإنك لا دليلَ لك على ذلك، ولا لمخالفك أيضا، والأئمة ﷺ على خير كثير، ولهم في صوابهم أجْرَانِ على كل مسألة، وفي خطئهم أجرٌ على كل مسألة".

- تحذير طالب العلم من أخطر الشرور وأضر الأمراض به وهو التكبر والعجب.
- استصحاب النظرة النقدية العلمية لجوانب أخرى تربوية، كالزهد، وعقدية كالتجسيم والتشبيه.
- التنديد بما خلا علمُه من علم الكتاب والسنة، واكتفى بشواهد الشعر واللغة، كقوله: "النحوي إذا أمعن في العربية، وعرِيَ عن علْمِ الكتاب والسنة بقي فارغاً بطَّالاً لعّاباً".
- الموازنة والمقارنة بين علم السلف والخلف، وجورته ونفعه، وندرة أهله، كقوله: "اللُّغويون قد عدموا في زماننا، فتجد الفقيهَ لا يدري لغة الفقه، والمقرئ لا يدري لغة القرآن، والمحدِّث لا يعتني بلغة الحديث، فهذا تفريط وجهل، وينبغي الاعتناء بلغة الكتاب والسنة ليفهم الخطاب".
- نقد بعض الكتب وبيان ما فيها من إشكالات وملاحظات، كقوله: "تفسير الفخر الرازي فيه إشكالات وتشكيكات لا ينبغي سماعها، فإنها تُحيّر وتُمرِض وتُردي ولا تشفي غليلاً".
- تقديمه وتفضيله لعلم السلف على الخلف، كقوله: "أقوال السلف في التفسير مليحة".
- استخدام بعض الأساليب المنفرة من بعض السلوكيات والممارسات التي ينبغي على طالب العلم الانتباه لها، كاستخدامه أساليب الاستهجان، والتوبيخ.. كقوله: "أصول الفقه لا حاجة لك به يا مُقلِّد، ويا مَن يزعم أن الاجتهاد قد انقطع".
- التأكيد على العقيدة الصحيحة، كأركان الإيمان، وأنّ القرآن المنزَّلُ كلام الله تعالى غير مخلوق، والترضي عن كل الصحابة".
- التصريح بأخطار بعض العلوم ومفاسدها، كقوله: "المنطق نفعُه قليل، وضرره وبيل، وما هو من علوم الاسلام..."، وقوله: "والحكمة الفلسفية الإلهية ما ينظر فيها مَن يُرجى فلاحُه، ولا يركن إلى اعتقادها من يَلوح نجاحُه، فإن هذا العلم في شق وما جاءت به الرسل في شق".
- تكراره لعبارات وأدعية لم ينفك ملازماً لها، وكأنه يشير إلى أن المعصوم مَن عصمه الله، والموفق مَن وفقه الله، كقوله: "نسأل الله السلامة.. والله المستعان".
- التذكير بأعمال القلوب والتي عليها مدار القبول، كالنية، والإخلاص، وسلامة الاعتقاد.
- بيان أن التوسّع في بعض العلوم يُفوّت الوقت لاسيما إذا توسّع صاحبُه في افتراض مسائل لا تقع، وأن التوسط قصد حسن، كقوله عن الفرائض: "وهو علْمٌ مليح، والامعان فيه يُفوِّت الوقتَ، والتوسطُّ في ذلك جيد، فكم من مسألة في الفرائض ما وقعتْ ولا تقع أبداً".
- التحذير من اتخاذ العلم وسيلة للتكسب وجلب المال من غير محله، ولا حِله، كقوله عن المنشئ في علم الإنشاء: "وربما أبدع في سطر ترتّب عليه خرابُ مصْرٍ، وربما أعان على تعلُّمه على سفْكِ الدماء الحرام، فانظر أين أنت يا بليغ؟ قد ذمَّ نبيُّك البلاغةَ فقال: "**إن من البيان لسحرا**"، وقال: "**العيّ من الإيمان**"، فَكَمِّلْ براعةَ البلاغة بإرضاء ربك الأعلى، وبِنُصْحِ ربِّ الأمر، فهنا كمالُ البلاغة إن كنتَ من المتقين، وإن تعذَّر ذلك فدينُك ما منه عِوَضٌ، فمَنِ اتَّقى اللهَ كفَاه الناسَ، ومَن أرضى الناسَ بسخطِ اللهِ سلَّط اللهُ عليه مَن أرضاه، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين".

- ذكره لبعض أنواع العلوم والتي قد يُتصوّر أنه لا خير فيها، كالشعر، حيث يقول فيه: "فحَسَنُه حسَنٌ وهو قليل، وقبيحُه قبيحٌ وهو الأغلب، وبيتُ مالِه الكذبُ والإسرافُ في المدح والهجو والتشبيه والنعوت والحماسة، وأملحه أكذبه".
- استصحابه للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، واستشهاده بها فيما أورد من علوم وفنون، وإيقاعه الشاهد في موضعه المناسب، ما يدل على حسن تصوّر الإمام واطلاعه على الفنون التي تناولها.
- حُسْن وصفه وجودة نقده، كقوله في الشعراء، كقوله: "والشاعر المحسِنُ كَحَسَّان، والمقتصِدُ كابن المبارك ، والظالم كالمتنبي، والسفيه الفاجر كابن الحجاج، والكافر كذوي الاتحاد".
- بعد أن يذكر الطوائف والفرق يُعطي القارئ فرصة ليفكر ويختار ما ينبغي أن يحتاط به لدينه ودنياه وأخراه، كقوله: "فاختر لنفسك أيَّ وادٍ تَسْلُك".
- معرفته بعلوم ومعارف الأمم الأخرى، كقوله عن الحساب: "الحساب وشرع الديوان هذا من علوم القِبْطِ والفُرْس، ليس من علوم الإسلام".
- التنويع في أساليب اللغة العربية، كالسجع والتضاد، كقوله عن علم الشروط: "علم حسن شرعي، مَن برع فيه ولزِم العدالةَ والورعَ عاش حميداً ومات فقيداً، ومَن عاش فيه بالحيل والمكر والدهاء فلا بد له من خزي في الدنيا ومقت في الأخرى، وإن تَسوّد هذا، {قُلْ مَتَاعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى}.
- تناوله لبعض العلوم التي تُعين طالب العلم في إيصال رسالته، وإبلاغ دعوته، كالوعظ، وما ينبغي أن يُحسنه صاحبه، كقوله عنه: "يحتاج إلى مشاركة جيدة في العلم، ويستدعي معرفةً حسنةً بالتفسير، وإكثاراً من حكايات الفقراء والزهاد، وعُدّتُه التقوى والزهادة، فإذا رأيتَ الواعظَ راغباً في الدنيا قليلَ الدِّين، فاعْلَمْ أن وَعْظَه لا يتجاوز الأسماعَ، وكم مِن واعظٍ مُفَوَّهٍ قد أبكى وأثَّر في الحاضرين تلك الساعة، ثم قاموا كما قَعَدُوا".

تلخيص الفصل الثالث من كتاب النقد التربوي في المنهج الإسلامي المؤلف: د. حسين بن نفاع الجابري.

<u>قواعد النقد التربوي</u> أولاً: معنى قواعد النقد التربوي: القواعد جمع قاعدة، وهي الأساس، ومنه قواعد البيت: أسسه التي يبنى عليها، وقواعد الهودج: خشبات أربع تحته، رُكِّب فيهنّ، وفي التنزيل الحكيم: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧] قال الإمام الطبري رحمه الله (١٤٢٠، ٣، ٥٧): "وَالْقَوَاعِدُ جَمْعُ قَاعِدَةٍ، يُقَالُ لِلْوَاحِدَةِ مِنْ قَوَاعِدِ الْبَيْتِ قَاعِدَةٌ، وَلِلْوَاحِدَةِ مِنْ قَوَاعِدِ النِّسَاءِ وَهن عَجَائِزِهِنَّ قَاعِدٌ، فَتُلْقى هَاءُ التَّأْنِيثِ؛ لِأَنَّهَا فَاعِلٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: قَعَدْتُ عَنِ الْحَيْضِ، وَلاَ حَظَّ فِيهِ لِلذُّكُورَةِ، كَمَا يُقَالُ: امْرَأَةٌ طَاهِرٌ وَطَامِثٌ؛ لِأَنَّهُ لاَ حَظَّ فِي ذَلِكَ لِلذُّكُورِ. وَلَوْ عَنَى بِهِ الْقُعُودَ الَّذِي هُوَ خِلاَفُ الْقِيَامِ لَقِيلَ قَاعِدَةٌ ، وَلَمْ يَجُزْ حِينَئِذٍ إِسْقَاطُ هَاءِ التَّأْنِيثِ. وَقَوَاعِدُ الْبَيْتِ: إِسَاسُهُ". **وفي الاصطلاح الفقهي:** قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها. **ويراد بها هنا:** الأصول التي يُبنى عليها النقد التربوي في جميع مجالاته.

ثانياً: أهمية معرفة قواعد النقد التربوي: ۞ معرفة قواعد النقد التربوي مهمة لتحقيق الأهداف المرجوة منه. ۞ تجعل الناقد يسير على خُطى واضحة المعالم، بيّنة المقاصد، جادة متزنة. ۞ تُبعد الناقد عن العشوائية والارتجالية، والانحراف عن المسار الذي أنشأ نقده من أجله. ۞ تُسهم في تحقيق نتائج صادقة ودقيقة، وتوصيات علمية مبنية على مقدمات وتسلسلات مقنعة.

ثالثاً: قواعد النقد التربوي:

القاعدة الأولى: الإخلاص القصد لله تعالى، فجعل الإنسان قصده من النقد وجهَ الله تعالى والدار الآخرة، والتجرد الكامل من حظوظ النفس وشهوات النفس، لا رياءً ولا سمعة، ولا ثناء ولا منصباً، ولا ارتفاعاً على أقران، ديدنه ما أمر اللهُ تعالى به نبيه ﷺ: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: ٨٦]، فالإخلاص ركن العمل وأساسه، وبتوفره يكون صلاح العمل، وبغيابه يكون فساد العمل، قال ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى"، وبقدر الإخلاص يكون الانتفاع بالجهود والنصائح والتوجيهات، وفي المقابل يحذر من ترْك النقد والتوجيه والنصح بحجة عدم الإخلاص، فإن هذا مدخل من مداخل الشيطان، وتأتي فاعلية هذه القاعدة وتأثيرها في عملية النقد التربوي أنها تأخذ الناقد وعمله إلى السلامة من المقاصد التي تؤدي به إلى الحيف، فالنقد حُكْم يحكم به الناقد في الأمر المنقود، فتُوجّه هذه القاعدة إلى النظر والفكر في حقائق المسائل والنظريات المطروحة، والتجرد من الأهواء التي تُؤثر في كل نشاط أو عمل بشري.

القاعدة الثانية: اعتماد المصادر الشرعية: قال سبحانه وتعالى: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: ٣]، "والإنسان في نظره مع نفسه، ومناظرته لغيره إذا اعتصم بالكتاب والسنة هداه الله إلى صراطه المستقيم، فإن الشريعة مثل سفينة نوح عليه السلام، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق"، فالقرآن والسنة هما المصدر الأساس الذي يُرْجَع إليه في ضبط الموازين ومعرفة القيم النافعة وتجلية الحقائق، قال سبحانه: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}، لذا كان من أولويات القواعد في النقد التربوي اعتماد هذا المصدر لثباته وشموليته، وسلامته من المتناقضات، فالاهتداء بالكتاب والسنة في العمل النقدي يجعله أكثر جدية واهتماما بالكليات والأصول، ويُبعد عن الإغراق في الجزئيات والفروع، ويَحميه من المبادئ والمعتقدات الفاسدة، ويفيدان في تربية الأفراد على طلب الأكمل والأفضل، فيتوجّه سعيُه للإصلاح والتطوير: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}.

القاعدة الثالثة: الإلمام المعرفي، ويُقصد به اطلاع الناقد ومعرفته بعدد من المعارف التي تجعل العملية النقدية أقرب إلى الصواب، ومنها: العلم بالموضوع المنتقَد، فيكون لديه تصور كامل عن الموضوع الذي يريد نقده، ومنها: العلم بحال الشخص المنتقَد، ومن ذلك أن يعتني المعلم في عمله التعليمي والتربوي بالتعرف على تلاميذه من جميع النواحي، فإذا عرف الناقدُ حال الشخص ومكانته كان ذلك عوناً له على اختيار الوقت المناسب والمكان المناسب والأسلوب المناسب لتوجيه النقد إليه، ومنها: معرفة المصطلحات وإطلاقاتها عند أهل الاختصاص: فعدم معرفتها يؤدي إلى اختلال الموازين، وخلط الحقائق، وإيجاد هوة سحيقة بين أفراد المجتمع لا يمكن الالتقاء معها، فلابد من الإحاطة بدقائق الفن الذي يتكلم فيه الناقد، ليكون على بصيرة، ولا يكتفي بمجرد العلم الظاهر.

القاعدة الرابعة: مجانبة الهوى وشهوات النفس: فقد نهى الله تعالى عن اتباع الهوى: {فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا} [النساء: ١٣٥]، فالهوى رأي يتبع شهوة النفس وما تدعو إليه دون إعمال للعقل والنظر السديد، ومن هنا سُمِّي أصحاب البدع بأهل الأهواء، فعلى الناقد أن يحرص غاية الحرص على مجاهدة نفسه عن الهوى والميول الشخصية، ويحذر من ذلك، ويُعالج نفسه أثناء مزاولة النقد بالالتجاء إلى الله تعالى وسؤاله العافية من الهوى والنجاة منه ومن مرتعه الوخيم، فأشد الجهاد جهاد الهوى كما قيل.

القاعدة الخامسة: قراءة النصوص كما في سياقها: والمقصود النظر إلى النصوص كما وردت في سياقها، وعدم بترها عما قبلها أو بما بعدها مما له صلة بها، حتى لا يكون في ذلك قلب للحقائق وصرف لمراد المتكلم عن مقصده، وتحميل كلامه ما لا يحتمل، وهذا يُوجب في النص التربوي إيراد نص العبارة كاملة، دون زيادة أو نقصان، ثم يُبيّن ما فيها من نقص أو قصور.

القاعدة السادسة: الحكم على الظاهر وعدم التعرض للنيات والمقاصد، فالنية عمل قلبي لا يطلع عليه أحد من الناس، في المتفق عليه، يقول عليه الصلاة والسلام: "إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ قُلُوبَ النَّاسِ، وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ"، فالأحكام يعمل فيها بالظواهر، والله يتولى السرائر، والنقد التربوي يتطلب بيان الخطإ في العمل المنقود، دون التعرض للنيات، أو اتهامها بما لا يمكن إثباته، لأن التدخل في نيات الآخرين عمل غير مقبول في المنهج الإسلامي.

ضوابط النقد التربوي: أولا: تعريف الضوابط: الضوابط في اللغة: جمع ضابط، والضبط: حفْظ الشيء حفظاً بليغاً دون إخلال به، ومنه قيل: ضبطتُ البلادَ وغيرها، إذا قمت بأمرها قياماً ليس فيه نقص، ومنه: رجل ضابط، أي: قوي شديد، والأضبط من الرجال هو الذي يعمل بيديه جميعاً، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه. فالضبط يشتمل على الإتقان الدقيق للشيء المراد ضبطه، بوضع قيود واحترازات علمية، منية على الاستقراء للنصوص، والنظر في أقوال العلماء، ومنهجيتهم التي ساروا عليها، فالضوابط هي: المقيدات التي يتم بها حفظ آليات النقد وحدوده التي يسير من خلالها وفق المنهج الإسلامي.

ثانياً: الضوابط:

الضابط الأول: ضابط المشروعية: أي يكون النقد موجهاً لما يجوز نقده شرعاً، أما ما لا يجوز نقده شرعاً فلا يتوجه النقد إليه بحال، ككلام الله وكلام رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ لأنهما وحي من الله تعالى، فلا مجال للخطإ فيهما، فهما مصدر يقيني لا يتطرق الشك إلى صدق أخبارهما، وعدل أحكامهما، ولاشتمالهما على المنافع العظيمة، وإن يدرك العقل البشري بعض الحِكَم منهما، كما قال سبحانه: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤١-٤٢]، فلا يجوز توجيه النقد للوحيين المطهرين، لا جدًا ولا هزلاً، بل يُسلِّم المسلم لما ورد فيهما. وهذا الضابط يعمل على تربية الإنسان وحمايته من الوقوع في مهاوي الردى، ويُبيّن له إمكانياته العقلية المحدودة فلا يتجاوزها، ويجعل قراءته لنصوص الوحي قراءة مضبوطة واعية، قراءة تفهم وتعقل، وتأصيل وتقعيد.. ويضبط العملية النقدية التربوية من التعرض لنصوص الوحيين بالنقد في أساليبها أو أهدافها أو تطبيقاتها العملية، كما أنه الالتزام به يضبط عملية المقارنة التربوية، ويسير بها في المسار الصحيح، وطرْح كل ما يضادها التربية الإسلامية من أفكار ونظريات تربوية أخرى وتقديم ما تثبت بالوحي على غيره.

الضابط الثاني: ضابط الإتقان والجودة: ويُراد به اتباع الناقد منهجيةً صحيحة في عمله النقدي، والسير عليها في جميع الأحوال، وفي الحديث يقول ﷺ: "إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ"، وهذا يستلزم من الناقد التربوي أن يبذل جهده في اتباع الأساليب التي تُسهم في تحسين العملية النقدية وأدائها على الوجه المطلوب، وأن يبتعد عن كل ما يمكن أن يخدشها أو يجعلها تنحرف عن مسارها الصحيح، كما يستلزم أن يُطبق نقده لتصحيح الأخطاء وتقويمها، بغض النظر عن أصحابها، فلا يحمله بُغْض أحد على تضخيم، ولا ترده محبة عن توجيه نقد، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}، فعلى الناقد أن يتعامل بهذه المنهجية في حال الغضب والرضا، والمحبة والكره، وكان من دعائه ﷺ: "اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ – وفي

رواية: العدل، وفي رواية: الحُكم – فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى ". ومن مستلزمات النقد التربوي وجودته، استخدام الأساليب العلمية الصحيحة، والمنهجية الثابتة في عملية النقد التربوي، وهذا يتطلب الدقة في الملاحظة، وعدم تجاهل للأدلة المضادة، وتحري نضج النتائج، والحذر من الخطإ في التوفيق، وعدم التأثر بالأحكام الشخصية، والتحيزات الذاتية المسبقة.

الضابط الثالث: نقد الصفات لا نقد الذوات: والمقصود أن ينصب النقد على السلوك أو الفكر أو المنهج أو الأسلوب دون التعرض لذات الشخص، فالنظر في الخطإ ذاته مجردا عن صاحبه يجعل الناقدَ أكثر روية واتزاناً في تحليله للخطإ وتقويمه، وعدم التأثر بمكان المنتقَّد أو قربه أو بعده، وهذا هو منهج القرآن الكريم، فلا يُسمِّي الأشخاص غالباً بأسمائهم في المجالات النقدية كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [الحجرات: ٤]، وفي هذا الأسلوب من الإيجابيات التربوية الشيء العظيم، فهو يحفظ لصاحب الخطإ مكانته، ويدفعه إلى قبول التوجيه النقدي، وتأمله بإنصاف إن من ذوي الحجا، ولا يدفعه إلى التحدي والمكابرة والرد والإعراض، وقد استخدمه النبي ﷺ كثيراً، كما في قوله: "ما بال أقوام.."

الضابط الرابع: ضبط الموازنة: ويُراد به النظر فيما للشيء المنقود من إيجابيات وسلبيات والموازنة بينهما، فأيهما غلب كان التأثير له، وهذا من باب العدل الذي أُمرنا به، قال حذيفة بن اليمان ﷺ: "وليس أحد إلا وفيه محاسن ومساوئ"، وهذا الضابط ليس على إطلاقه، بل فيه تفصيل؛ فعند الترجمة العامة للشخص فيذكر ما فيه من حسنات وسيئات، وأما عند الرد على خطئه فلا يلزم إلا الرد عليه بما يناسبه.

أخلاقيات النقد التربوي:

القسم الأول: أخلاقيات تتعلق بالمنهجية النقدية:

١- الرفق، وله أثر فاعل على نفسية مَن يُوجَّه إليه النقد والتقويم، فهو يعمل على التآلف، ويزيد المحبة والتواصل، ويقرب بين المتباعدين، ويساعد على عملية الإصلاح بدون أضرار تُذكر.

٢- تقديم حسن الظن: كما قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: ١٢]، فإذا سمع عن أخيه شيئاً يُنتقد عليه، فالواجب عليه إحسان الظن به، لا الخوض فيه بدون برهان ولا بينة.

٣- أن يكون النقد في الخلوة: لأنها مظنة القبول وصفاء النفس، وهي مدعاة للفهم والأخذ والعطاء وإدراك الحق، فالهدف من النقد إصلاح الخطإ وتعديل السلوك، والستر على المخطئ وعدم إظهار عيوبه أمام الآخرين، وهذا أدعى لصدق الناقد، وإخلاصه، وحبته الخير لإخوانه، فيجتنب التشهير والعلانية..

٤- التواضع: فينتقد الآخرين دون تعال أو ترفع عليهم، أو احتقار لهم، أو إظهار التعا لم، والتواضع من الأخلاق التي تعين الفرد على التواصل مع الآخرين، وبقدر تواضعه في نقده تكون منزلته وقبول كلامه عند الناس.

القسم الثاني: أخلاقيات تتعلق بالقسم الأول: أخلاقيات تتعلق بأدبيات العرض:

١- احترام أهل العلم والفضل: ففي الحديث: "لَيْسَ مِنّا مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ"، فيتأدب معهم في النقاش والرد عليهم، وانتقاد آرائهم وتحليلها، بما يناسب مستواهم العلمي ومكانتهم في المجتمع، واعتماد الأدب في ذلك كله، وإن أخطأ الشيخ فمن أدب الطالب أن يعيد قراءة اللفظ ويكرره على الشيخ؛ لينتبه لخطئه، وإلا أتى بالصواب على سبيل الاستفهام، وإلا أجّل المناقشة لمجلس آخر إن أصر الشيخُ، فربما الصواب معه لا مع الطالب.

٢- البلاغة اللغوية ووضوح المعنى: أي التوصل إلى إفهام المعاني المقصودة، وإيصالها لقلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها، وأفصحها وأحلاها لدى الأسماع، وأوقعها في القلوب، وأن يكون النقد بأسلوب واضح وكلمات سهلة معروفة للسامعين، قال الله تعالى لنبيه الكريم ﷺ: {عِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء: ٦٣].

٣- عفة اللسان: فيكون مهذبا في نقده، ملتزما بالأدب وحسن الخطاب، مبتعداً عن السباب والسخرية واحتقار الآخرين، وكل فاحش من الألفاظ، يقول أنسُ ﷺ: "لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ سَبَّابًا، وَلاَ فَحَّاشًا، وَلاَ لَعَّانًا، كَانَ يَقُولُ لأَحَدِنَا عِنْدَ الْمَعْتَبَةِ: مَا لَهُ! تَرِبَ جَبِينُه"، فمَن وُفق للقول الحسن مع اللين واختيار العبارات المناسبة فهو الموفَّق المسدد، فالنقد التربوي القائم على سلامة ألفاظه من كل ما يخدش جمالها ورونقها يدل على قوة صاحبه، ورجاحة عقله، ومما يعين على عفة اللسان: استحضار معية الله تعالى، ومحاسبة النفس ومجاهدتها كل وقت، ومخالطة الصالحين..

٤- صدق المشاعر الإنسانية: فيُظهر في النقد علامات حب الخير للآخرين، وهو دليل على إخلاص الناقد، كما يجعله موضع احترام وتقدير من الطرف المقابل، قال ﷻ: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨]، وقد شبّه النبي ﷺ المؤمنين حال تعاملهم مع بعضهم بقوله: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"، ففي الحديث حث على التراحم والتعاطف والتعاضد في غير إثم ولا مكروه، ومما يدل على صدق المشاعر الإنسانية في العملية النقدية أن يفتتح النقد بالدعاء ويختم به كذلك، وذكر الألقاب العلمية للمنتقَّد، وعدم إغفالها أو استبدالها بألفاظ التهكم والسخرية والتندر، فهذا مما يفتح قلبَ المنتقَّد ويستثر عواطفه ويحرك مكامن قلبه لِتَلَقِّي ما يُوجه إليه.

٥- الاختصار وعدم الاستطراد، ما لم يكن هناك ما يستدعي ذلك، وهذا منهج قرآني ونبوي، واللغة العربية لغة الاختصار والإيجاز، يُضاف لذلك ما يتركه الاختصار من إمكانية إلمام المنتقَّد بما يُلقى إليه؛ كي يَعِيَه ويحفظه ويُطبّقه، كما قيل: ما قلّ لفظُه سهُل حفظُه.

٦- الاستشهاد، فيستدل بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكلام أهل العلم، لأن ذلك مدعاة للقبول، وحتى يعلم المنتقَّد أن الكلام الموجه إليه من المصادر، وليس مزاعم أو اختلاق، وحتى ينتبه أن قد أخطأ الطريق، وحاد عن الحق.

تلخيص الفصل الخامس من كتاب النقد التربوي في المنهج الإسلامي:معوقات النقد التربوي. د.حسين بن نفاع الجابري

معنى معوقات النقد التربوي: كل ما يُمكن أن يكون حائلا دون تحقيق الأهداف والطموحات، وأما المعوقات الذاتية فهي الموانع التي تنبع من الإنسان نفسه، لا من قوى أو مؤثرات خارجية، وتحول دون تحقيق النقد التربوي لأهدافه.

معوقات النقد التربوي: المبحث الأول: المعوقات الذاتية:

١. **الحسد**، وهو الأسف على الخير عند الغير، وهو داء خطر قل أن يسلم منه أحد إلا مَن رحم الله تعالى، وإذا اتصف به الإنسان منعه من قبول الحق وتوجيهات الآخرين، كما تعالى مبيناً أن الحسد هو سبب عدم إيمانهم: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}، فالحاسد لا يعترف للآخرين بفضيلة، ولا يستمع لهم استماع مريد فائدة، وإنما استماع باحث عن أخطاء وزلات، فيورد صاحبَه الهمومَ والغموم، ويُسبب له القلق النفسي،

فلا يقبل نصيحة، بل يعدها من التطاول على خصوصياته.. فالحسد من مقومات النقد التربوي لأنه يحمل صاحبه على إساءة الظن بالآخرين، وربما أوّل مقاصدهم، كما انه يُؤدي إلى كتمان الحق، وإنكار الفضل لأهله، والتغافل عن محاسنهم، ويمنع إنصافَ الآخرين، ويحمل على ظلمهم، كما أنه يجعل صاحبه يفرح لأخطاء الآخرين؛ ليوجه النقد إليهم، لا إصلاحاً بل تشفيًّا، وتشهيرًا بهم على الملإ، وهذا مدخل من مداخل الشيطان، يصيب صاحبَه بالعجب والغرور، من حيث يعتقد أنه مخلص يريد الإصلاح، كما أنه يُعوِّد صاحبَه على تتبع أخطاء الآخرين، فيفوّت طلب المعالي، ويحرم الانتفاع من معارف وعلوم الآخرين، وربما قاده لتتبع العورات، وتصيّد العيوب، وإشاعاتها بين الناس.. ويُمكن معالجة الحسد بأمور منها، أن يتذكّر الإنسان أن النعم مواهب من الله تعالى، وأن ينظر إلى ما عنده من النعم ويحمد اللهَ عليها، ويسأله المزيد، ويُفكر فيمن هو دونه، ويتعرف على مساوئ الحسد وأضراره عليه، ويُحاسب نفسه، ويُكثر اللوم لها على هذا الخلق الذميم، ويُكثر من الدعاء للآخرين بالخير والتوفيق والتقدم المستمر.

٢. **الانفعال وسرعة الغضب**، فالغضب صفة انفعالية تجعل تفكير الإنسان مستغلقاً، وتُفقده الحكمة والروية، فلا يُفرّق بين الانتقام والإصلاح، وتُحوِّل النقد التربوي إلى أسلوب لمبادلة الشتائم وكيل التهم، وقد منع النبي ﷺ القاضي من الحكم بين الناس في حالة الغضب، وألْحَقَ به أهل العلم رحمهم الله سائر ما يتعلق به القلب تعلقاً يمنعه من استيفاء النظر ، ويؤدي إلى تشويش الذهن ، وحَجْبِ الرؤية الصحيحة للأشياء ، كالجوع والعطش المفرطين ، والحر والبرد الشديدين ، وغلبة النعاس ونحو ذلك، أخذاً من حديث النبي ﷺ حيث قال: "لا طلاق ولا عتاق في إغلاق"، وفي هذا دليلٌ على تأثر العقل بالحالات النفسية للإنسان ، فهو في تلك الحالة سيقضي بما يجانب الصواب ، مما يؤكد قصور العقل عن أداء مهمته في مطلق الأحوال، والغضب نوعٌ من الغلق، والإغلاق الذي يغلق على صاحبه باب حُسْن التصور والقصد، فيتصرف الإنسان تصرفاً خارجاً عن عادته بسبب هذا الانفعال النفسي، فيتجاوز في النقد التربوي للقضية المنتقَدة، وإنْ كانت يسيرة، وقد النبي ﷺ بعض أصحابه بقوله: "لا تغضب"، ردد مراراً: "لا تغضب"، فالغضب معوق من معوقات النقد التربوي، يحجب صاحبه عن رؤية الحقيقة، وإدراك الصواب، ويفقده السيطرة على نفسه، وربما حمله على الظلم والعدوان، وقد أظهرت الدراسات الحديثة أن " الانفعالات الثائرة الهائجة لا تكاد تنجو من أثرها الضار وظيفةٌ من الوظائف العقلية، فالانفعال العنيف يشوه الإدراك، ويعطل التفكير المنظم، ويضعف القدرة على التذكر، ويشل سيطرة الإرادة، مما يجعل الزمام يفلت من الفرد فيندفع إلى ضروبٍ من السلوك الصبياني أو البدائي أو غير المهذب، وهذا يحتم على الإنسان أن يعمل جاهداً على ضبط نفسه، وحُسن سياستها عند الغضب، لئلا يخرج عن طوره في نقد الآخرين، ولعل مما يعينه على ذلك اتباع الخطوات التالية: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والسكوت، ورد أن رسول الله ﷺ قال: "إذا غضب أحدكم فليسكت"، وتغيير الهيئة، ففي الحديث: "إذا غضب أحدكم وهو قائمٌ فليجلس ، فإنْ ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع"، والقراءة في سيرة رسول الله ﷺ ومَن بعده من الحلماء، واستحضار فضائل كظم الغيظ، وعدم إنفاذ الغضب، وأنه من صفات الكُمَّل من البشر، وأن يحاول تنفيس الغضب عنه بالتلفظ ببعض الألفاظ التي ليس فيها محذورٌ شرعي، كقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، الله المستعان ، التسمية ، ونحو ذلك من الألفاظ التي يعبر فيها الإنسان عن غضبه، ويعرف بها الآخرون انزعاجه، دون أن يقع منه ما يسيء للآخرين، أو يوقعه في حرجٍ معهم، أو يجلب له ندماً.

٣. **الهوى**: وهو ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات مِن غير داعية الشرع، وقيل: هو ما تشتهيه النفس من غير نظرٍ إلى مقصدٍ يحمد عليه شرعاً فالهوى نظرٌ مجردٌ إلى تحقيق رغبات النفس وشهواتها، وإلغاءٌ للأصول التي يبنى عليها النظر الصحيح للقضايا المختلفة، كالنصوص الشرعية، والموازنة بين المصالح والمفاسد، وهو بهذا يعد أحد معوقات النقد التربوي؛ لأن النفوس مجبولةٌ على حب الشهوات، والسعي في تحقيقها، ومحاولة تلبيتها ولو كانت خاطئة، فالمتبع لهواه، السائر خلف رغباته المجردة يلغي فاعلية ما أعطاه الله تعالى من أدوات التعلم والإدراك الصحيح، وتسخيرها كما يجب، والتي تعينه على التعرف على كثيرٍ من

الحقائق ، وبالتالي فإن أحكامه ستكون غير دقيقةٍ؛ لأنه لم ينظر بعين الباحث عن الصواب، وإنما نظر بما يحقق رغبته ويوافق ما تهواه نفسه، وذلك في النهاية يؤدي إلى الظلم والضلال، وأصل الهوى ميلٌ طبيعيٌّ لإرضاء النزعات الشخصية، مما يجعل المرء يتعجل الوصول إلى نتيجةٍ قد ترضيه وتريحه، ولو كانت زائفةً أو مؤقتة، الأمر الذي يدفع به إلى البحث عن كل ما يتماشى مع ميوله الشخصية، ورغباته النفسية، فيبرزها في الإطار الذي يرضيه، ويفسرها بالأسلوب الذي يدعم ما يراه، بِغَضِّ النظر عن كل ما يمكن أن يناقض ذلك، فتجد صاحبه صلباً في الدفاع عن رأيه، ولا يقبل التنازل عنه، ولا يصغي للآراء الأخرى مهما كانت قوتها، لأنه لا يسعى لمعرفة الحقيقة، بل يحاول تنفيذ ما يراه بعقله، ويستحسنه بهواه ، فيكون هذا سبباً لضلاله، وبُعْدِه عن التوفيق، فإذا تدخلت الأهواء في الحكم على القضايا المختلفة ، فإنها تكون مفسدة للحكم لا محالة، وذلك لاختلاف الأهواء والرغبات، وعدم اتفاقها بين البشر.. ومِن أنفع ما يمكن أن يعمل على محاربة الهوى ، والتقليل من أثره على الأحكام والانتقادات هو العلم النافع، الذي يجعل صاحبه يستنير بالعلم ويهتدي إلى الحقيقة عن طريق الحقائق والبراهين الثابتة ، ولا يسمح للأهواء أن تتدخل في الحكم على أي قضيةٍ حتى يعرضها على الموازين العلمية ، المستندة إلى نصوص الوحي المطهر ، وما ثبت لديه من التجارب والخبرات.

٤. **الكِبْر**: وهو خُلُقٌ نفسي باطني، يظهر أثره على الجوارح، وإنما يكون معوقاً من معوقات النقد التربوي لأن صاحبه يأنف مِن تقديم النصيحة لغيره، وإنْ نَصَح عنَّف في النصح، وتعالى في الأسلوب، وإنْ علَّم لم يرفق بالمتعلمين، واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم، واستخدمهم في قضاء حوائجه، مما يقطع حبل التواصل بينه وبين سائر أفراد العملية التعليمية، فلا يستمعون لتوجيهاته، ولا يعملون بما يرشدهم إليه ولو كان صواباً، قال الرسول ﷺ: "لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كِبْر" فبيَّن ﷺ حقيقة الكِبْر، وأنه من أكبر الأسباب في رد الحق ومعارضته، عناداً وتكبراً، ويبين هذا بجلاءٍ موقف فرعون من دعوة موسى عليه السلام حيث تيسرت لفرعون سبل المعرفة، وبَانَ له وجه الحقيقة، ولكنْ مَنَعه مِن قبولها والإذعان لها ما كان يتصف به من الكِبْر والغطرسة، وحب السيطرة على الشعوب، واستعباد الضعفاء، إضافةً إلى أن المتكبر لا يرغب –غالباً– في التعاون مع الآخرين، أو العمل معهم بروح الفريق الواحد، وإنما يعتزل أَنَفَةً ولا يرضى بنقد الآخرين له، فيكون بذلك خاسراً؛ لأنه لا يتعلم ولا يتطور ما لم يستمع لوجهات نظر الآخرين.

٥. **الجهل**: وهو ضحالة المعرفة لدى الفرد، ويعد من أبرز المعوقات التي تحول دون تحقيق النقد التربوي لأهدافه، أو تَحُدُّ من قدرته على بلوغ مراميه، مما يجعل الفرد يقبل ما يلقى إليه من قضايا بدون تثبت ولا توكيد ولا روية، ومن صوره في هذا المجال: الجهل بالفن الذي ينتقده، ويتكلم فيه، وهذا من الغرائب، حيث يقحم الإنسان نفسه فيما لا يحسنه، وقد قال النبي ﷺ: "مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"، ولذا عاب أهل العلم على الذي يتكلم في كل فنٍّ وهو لا يحسن ذلك، لأن هذا الأمر يعد من التقول على الله بغير علم، ومن الجناية على التخصصات العلمية المعتبرة، ومن صور الجهل أيضاً: عدم فهم مراد المتكلم من كلامه، أو وضعه في غير موضعه، وهو نتيجة قصور العلم لدى الفرد، وهذا يلزم منه وجوب التحري والتثبت في فهم المسألة المنتقَدة قبل إصدار الحكم عليها، ومن وصوره: عدم استكمال التصور للمسألة ومتعلقاتها مِن أدلةٍ أو استثناءات ونحو ذلك، ومنه: الجهل بفن النقد التربوي وطرائقه وأساليبه، فإن الناقد –ولو كان عالماً بالفن الذي ينتقده– ما لم يكن عنده إلمامٌ بطرائق النقد وكيفيته المناسبة، فإن نقده سيكون فيه نوع قصور، وربما كانت نتائجه عكسية، لأن هذه الملكة النقدية تُعِين الإنسان على اختيار الأسلوب المناسب والوقت المناسب والمكان المناسب، وكيفية التعامل مع سائر القضايا المختلفة، بما يؤدي الغرض المنشود من العملية النقدية، وهذا أمرٌ زائدٌ على مجرد العلم، ولذا يحسن بالإنسان أن يعمل على رفع الجهل عن نفسه، ولا يقنع به أو يلتمس لنفسه المعاذير في ترك التعلم، ولو تقدمت به السن، وينبغي له أن يتعلم الممارسة النقدية الصحيحة من خلال القراءة الواعية حول هذا الموضوع، ومجالسة أهل العلم البارعين فيه، والحرص على التثبت من القضايا المختلفة قبل توجيه النقد لها، فإذا

فطن الإنسان لهذه المعوقات الذاتية من نفسه، واستطاع التخلص منها، ضمن أن تكون أحكامه صحيحةً وبعيدةً عن الخطأ، لأنه تجرد من الهوى وحظوظ النفس، وخلص من آثار التقليد غير الواعي، فيستطيع أن يبحث، وأن يكشف الحقيقة ويصل إليها.

المبحث الثاني: **المعوقات الاجتماعية**: ويقصد بها تلك المؤثرات الناتجة عن التفاعل الاجتماعي بين الفرد وبين سائر أفراد مجتمعه، أو بينه وبين المؤثرات الأخرى كوسائل الإعلام المختلفة وغيرها، ومن هذه المعوقات ما يلي:

١. **التربية على التقليد القاصر**: التقليد القاصر متابعة الآخرين في آرائهم وتوجهاتهم دون معرفةٍ لوجهات نظرهم ومآخذها، فالمقلد بهذا يلغي عقله وتفكيره، بل ويلغي شهادة حواسه حين يرضخ لحكم غيره، فيغمض عينيه ليرى بعيون الآخرين، ويصم أذنيه ليسمع بآذانهم، ويُوقِف حركة عقله وفكره ليفكر بعقل غيره، فينزل بذلك لمستوى العجماوات التي تسير خلف واحدٍ من أفراد القطيع، دون إدراكها لمسافة السير ولا جهته، فيسقط القطيع كله بسقوط القائد، وينجوا بنجاته، وهذا يوجب أن يتحقق الإنسان من مصادر المعرفة التي وصلت إليه، وألا يكتفي بتقليد غيره، والسير وراء الآخرين مهما كانوا إذ كثيراً ما كان التقليد الأعمى معطلاً للمعرفة، مضللاً للفكر الإنساني، فإذا علم المرء أن نزعة التقليد متغلغلة في نفوس البشر، وتوجههم وهم لا يشعرون، وسلطان الأفكار التي اكتسبت قداسةً مع مرور الزمن تسيطر على القلوب، كان ذلك مدعاةً لمضاعفة الجهود، وتظافر المؤسسات التربوية للحد من هذه الظاهرة، ومحاولة تربية الأفراد وتنشئتهم على إعمال العقل، واعتماد مبدأ الحوار الهادف، لتتولد لديهم القدرة على إبداء وجهات نظرهم، وامتلاك الوعي والإدراك الصحيح ضد الصور المخالفة بشتى أشكالها، ومنحهم الاستقلالية الكافية والواعية التي تمكنهم من المشاركة في الإصلاح والتوجيه، مع العمل على تصويبهم فيما يجانبون فيه الصواب، بأسلوبٍ حكيمٍ، يناسب مستوياتهم العقلية.

٢. **أسلوب التنشئة الاجتماعية القائم على التسلط والسيطرة**: وهو أسلوبٌ قائمٌ على تسيير الآخرين بالقوة، وفرض الرأي عليهم، وإلغاء شخصياتهم، وقد جاء الإسلام ليعالج هذا الأسلوب، ويعمل على ترشيده، فأرسى مبادئ الشورى، وأوضح مقصودها، من جلب المصالح وتحصيلها، ودرء المفاسد وتقليلها، والعمل على مشاركة الجميع في اتخاذ القرار المناسب، لاسيما فيما يخص المجتمع بكامله، كما قال تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩]، لأن أسلوب فرض الرأي على الأفراد واستخدام التهديد بصفةٍ مستمرةٍ يؤدي إلى ضعف ثقتهم بأنفسهم، وتعطيل تفكيرهم، وتقييد حريتهم في الاختيار، وربما أدى إلى العزلة عن المجتمع، وأعاقهم عن التفاعل الإيجابي مع الآخرين، وقد أمر الله سبحانه وتعالى المشركين بالتخلص من هذه السلطة الضاغطة التي تحجب نظر الإنسان عن رؤية الحقيقة، وتجعله يسير في دروب مَن سبقوه دون تبصرٍ ولا وعيٍ بما تؤول إليه، قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}، لأنهم إذا تخلصوا من هذه السلطة، وأصبح الإنسان يفكر بمفرده، مستخدماً ما أعطاه الله تعالى من موهبة العقل الناضج، والتروي في اتخاذ القرار، كان ذلك أدعى إلى رؤية الحقيقة والصدق مع الذات، فالتعامل مع المتربين يجب أن يكون بإيجابيةٍ وتقدير، دون ممارسةٍ لأي نوعٍ من الضغوط عليهم، لأن ذلك يسهم في تنمية قدراتهم الإبداعية، وتهيئة الفرصة لهم للتعبير عن آرائهم ووجهات نظرهم وأفكارهم في مختلف القضايا، وفتح المجال أمامهم للسؤال والمناقشة، وممارسة سائر ألوان النشاط الاجتماعي بنفوسٍ مطمئنة.

٣. **الاتكالية**: وهي الاعتماد على شخصياتٍ بديلةٍ تمارس العملية النقدية، وانعدام المبادرة لدى الفرد في إبداء وجهة نظره في القضية المطروحة، وتشكل أحد مظاهر الإعاقة الاجتماعية، ويتأتى هذا الأمر حين يشعر الفرد بعدم أهميته، أو أن هذا الواجب ليس من مسئولياته، فيعتقد أن قيامه بهذا الأمر يشكل عبئاً كبيراً عليه، فيدعوه ذلك إلى التخلي عن مسئوليته، والنظر إلى غيره ليقوم بهذه المهمة، والتنمية الناجحة تعتمد أساساً على بناء الإنسان ومدى تشكيله العقلي والروحي وسائر الجوانب الأخرى، ليكون إنساناً معتمداً على الله ثم على نفسه، متطلعاً إلى مستقبله، عاملاً على تنميته وتطويره، بعيداً عن الاتكالية والسلبية، والنظر إلى جهود الآخرين، وإلقاء اللائمة عليهم، فلن يكون للنقد التربوي أثرٌ كبيرٌ في حياة المجتمعات ما لم يتعود أفراده على العمل والجد، ومتابعة أعمالهم باستمرار، والعمل على تقويمها وتصحيحها بين الفينة والأخرى، وعلى القائمين على التنشئة الاجتماعية أن يراعوا الموازنة في التربية دون تدليلٍ زائدٍ ولا قسوةٍ مفرطة، مع العناية بتكليفهم ببعض المهام التي يطيقونها، ومتابعتهم، ومناقشتهم في الأعمال التي أنجزوها، ليتعودوا على تقويم ذواتهم، ومراجعة أعمالهم، فتزداد بذلك ثقتهم بأنفسهم، وتنموا لديهم روح المبادرة والقيادة.

٤. **غرس العصبية المقيتة**: ويراد بها تربية الفرد على التعصب لمذهبٍ أو جنسٍ أو بلدٍ أو غير ذلك، والنظر إلى أن الحقيقة محصورةٌ فيه، ولا يمكن أن تخرج عنه، وإلغاء دور العقل في إمكانية النظر أو المراجعة لما يتم طرحه من قضايا وأفكار، وحَصْرُ وظيفته في تقديس الجهة التي يتعصب لها، وهذا من الغش في تربية الأفراد وعدم أداء الأمانة على وجهها، وإذا تربى الفرد على هذه العصبية فإنه لا يكون همه في الغالب الوصول للحقيقة، وإنما ينطلق في تعامله مع الآخرين، وتقويمه للأمور من هذه العصبية، فيتعصب لوجهة نظرٍ معينة ويدافع عنها، ولا يكلف نفسه عبء البحث عن الحقيقة، أو مجرد الاستماع إلى وجهات النظر الأخرى، فيقتل بذلك روح البحث والتفكير لديه، ويُوصِد البابَ أمام أي ناقدٍ أو ناصح، وهذا يتطلب من وسائط التربية المختلفة كالأسرة والمسجد والمدرسة العمل فيما بينها لغرس مبدإ التعاون في نفوس الأفراد، ونشر ثقافة الحوار الهادف والبناء، فهو ضرورةٌ ملحةٌ لتطوير الذات، وتقويم الأعمال، وتلافي الأخطاء، ومعالجة سلبيات المجتمع عموماً.

المبحث الثالث: **المعوقات المنهجية**: وهي الموانع التي ترتبط بمنهج النقد، وتَحول دون تحقيق النقد التربوي لأهدافه، ومنها:

١. **التشهير**: وهو إظهار ما يُنتقَد على الشخص أمام الملأ، وهذا فيه فضحٌ له، وإظهار لِما خفي من عيوبه، ونشرٌ لِمساوئه، مما يدفع المنتقَد إلى المكابرة، والدفاع عن نفسه، وعدم الانقياد لِما وُجِّه إليه من نقدٍ وتوجيه، والإصرار على ما هو عليه، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بقوله تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء: ٦٣]، أي: قل لهم في أنفسهم خالياً بهم، ليس معهم غيرهم، مُساراً لهم بالنصيحة، لأنها في السر أنجع، وفي الإمحاض أدخل.

٢. **السخرية والتهكم بالآخرين**: وهي أن ينظر الناقد للمنقود نظرةً دونية، يشعره من خلالها أنه أرفع منه منزلةً، وأعلى منه قدراً، وقد نهى الله تعالى عن هذا الأسلوب بقوله ﷻ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ}.. وما أكثر ما كانت حال المخفقين الجاهلين، والمتعثرين المتأخرين، من جراء استخفاف المعلم بالمتعلم، واستحقاره لِمشاركاته أو تصرفاته، مما أدى إلى القضاء على روح الإبداع والابتكار لدى المتعلمين، وقطع حبل التواصل بينهم وبين معلمهم، بسبب التخوف القائم في نفوسهم من قول الخطإ، وإمكانية التعرض للاحتقار والاستهزاء، فيبقى المتعلم سلبياً في العملية التعليمية، ولا يتأتى له النهوض بنفسه، فالسخرية بالتلميذ أو الاستهزاء به وبقدراته، معوق كبير يَحُول دون

الاستفادة من المعلم ولو كان على قدرٍ كبيرٍ من العلم، بينما يؤدي إكرام الطالب واحترامه وتشجيعه على الإصابة ومساعدته في تجاوز أخطائه إلى الاقتراب بين المعلم والمتعلم، مما يساعد على الاستفادة وتعديل الأخطاء وتجاوزها بحياديةٍ وموضوعية.

٣. **استخدام التبرير**: وهو أسلوبٌ من الأساليب الدفاعية النفسية التي يستعملها الفرد للتهرب من توجيه النقد أو مواجهته، ويسمى: الفكر التبريري، أو التسويغي، أو الإسقاطي، وهو لا يظهر إلا عند حصول الأخطاء، فلأجل تبرئة النفس منها تَتِمُّ الإحالةُ إلى أسبابٍ خارج النفس، وإسقاط الخطإ عليها، بدلاً من الاعتراف بالخطإ، والشجاعة في مواجهته ومعالجته، وهو بهذا يعد معوقاً كبيراً من معوقات النقد، لاسيما إذا اعتاده الإنسان، فيصبح مدافعاً عن تصرفاته وسلوكياته، حتى وإن كانت خاطئة، فلا يتقدم بذلك خطوة نحو الإصلاح والتطوير، وإذا ساد ذلك في المجتمع فإنه سيصبح كل واحد من أفراد المجتمع يلقي باللائمة على الآخرين، ويبرر لنفسه الخروج من دائرة المسئولية، حتى يبقى المجتمع سائراً بلا هوية، وعلى مدار التاريخ كانت أكبر مشكلةٍ تعاني منها المجتمعات والنظم الأخلاقية هي قدرة العقل على تبرير الأمور الشنيعة، والهدف من وراء ذلك يتمثل على نحوٍ أساسٍ في التهرب من المسئولية عن التقصير في أمرٍ واجب، أو عمل ما لا ينبغي القيام به، ويقوم على دعامتين أساسيتين: الإحساس بالضعف، والشعور بالدونية واحتقار الذات، قال ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ٩٧]، فرَفَضَ الحقُّ سبحانه وتعالى تبريرهم بأنهم مستضعفون في الأرض؛ لأنه استُخدم كحيلةٍ من الحيل للفرار من واجب الهجرة المفروضة عليهم، فالتبرير بهذا يعد مرضاً عضالاً ينصرف به الإنسان عن إصلاح ذاته، وتقويم أعماله، فيبقى رهين الفشل، لاعتقاده أن كل ما يقوم به من أعمال أو تصرفات فهو الصواب، ولعل من أهم طرق معالجة هذا الأسلوب أن يعوِّد الإنسانُ نفسه على الاعتراف بخطئه، وعدم التماس المعاذير غير المقنعة لتصرفاته، ثم يسعى في إصلاح ذلك الخطإ، كما فعل آدم عليه السلام لما وقع في الخطيئة، حيث قال الله تعالى على لسانه عليه السلام: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

١. **التسرع في اتخاذ القرار**: ذلك أن القرار السليم يصدر بعد عدة عملياتٍ يقوم بها الإنسان، من دراسةٍ وتفكيرٍ وتحليلٍ ومناقشة، فإذا تم اتخاذ القرار حيال القضية المنتقَدة دون تمحيصها، ودراستها من جميع النواحي، وعرضها على مجال التحليل والمناقشة، فإنه سيكون هناك فشلٌ في العملية النقدية، أو على الأقل نقصٌ في طرحها، وقد يكون السبب في التسرع في اتخاذ القرار الخوف من فوات الفرصة، أو الضغط الاجتماعي من حول الناقد، أو غير ذلك من الأسباب، مما يستدعي معالجة هذا الأمر من خلال الخطوات التالية: أن يعتمد الإنسان على نفسه –بعد الله ﷻ– في اتخاذ القرار، وأن يُعَوِّد نفسه على التأني حتى يتم له فهم القضية من جميع زواياها، وأن يفكر في عواقب التسرع، وأنها في الغالب تؤول إلى الندم، وأن يدرس القرار ويراجعه، ويتعرف على سلبياته وإيجابياته ويوازن بينهما، وأن يبتعد عن ردة الفعل غير المدروسة؛ لأنها تجنح بالقرار –غالباً– نحو الأسوإ، وأن يحديد الأهداف من النقد بدقةٍ كبيرة؛ لأن ذلك يعين على التريث في دراسة القضية من أجل تحقيق الأهداف المأمولة.

وقفات نقدية مع كتاب الأخلاق والسير أو رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل

اسمه وولادته: قال الذهبي: "ابْنُ حَزْمٍ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ سَعِيْدٍ القُرْطُبِيُّ، الإِمَامُ الأَوْحَدُ، البَحْرُ، ذُو الفُنُوْنِ وَالمعَارِفِ، الفَارِسِيُّ الأَصْلِ، ثُمَّ الأَنْدَلُسِيُّ القُرْطُبِيُّ اليَزِيْدِيُّ، الفَقِيْهُ الحَافِظُ، المتَكَلِّمُ، الأَدِيْبُ، الوَزِيْرُ، الظَّاهِرِيُّ، وَلد بقُرْطُبَة فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِيْنَ وَثَلاَثِ مائَة.

نشأته وطلبه العلم: "نشأ في تنعم ورفاهية، ورزق ذكاء مفرطا، وذهنا سيالا، وكتبا نفيسة كثيرة، وكان والده من كبراء أهل قرطبة، وكان قد مهر أولا في الأدب والأخبار والشعر، وفي المنطق وأجزاء الفلسفة، فأثرت فيه تأثيرا ليته سلم من ذلك، ولقد وقفت له على تأليف يحض فيه على الاعتناء بالمنطق، ويقدمه على العلوم، فتألمت له، فإنه رأس في علوم الاسلام، متبحر في النقل، عديم النظير على يبس فيه، وفرط ظاهرية في الفروع لا الأصول. وسبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة، فدخل المسجد، فجلس، ولم يركع، فقال له رجل: قم فصل تحية المسجد، وكان قد بلغ ستا وعشرين سنة، قال: فقمت وركعت، فلما رجعنا رمن الصلاة على الجنازة، دخلت المسجد، فبادرت بالركوع، فقيل لي: اجلس، ليس ذا وقت صلاة وكان بعد العصر،قال: فانصرفت وقد حزنت، وقلت للأستاذ الذي رباني: دلني على دار الفقيه أبي عبد الله بن دحون. قال: فقصدته، وأعلمته بما جرى، فدلني على "موطأ مالك" فبدأت به عليه، وتتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحوا من ثلاثة أعوام، وبدأت بالمناظرة، قيل: إنه تفقه أولا للشافعي، ثم أداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله جليه وخفيه، والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث، والقول بالبراءة الأصلية، واستصحاب الحال، وصنف في ذلك كتبا كثيرة، وناظر عليه، وبسط لسانه وقلمه".

ثناء العلماء عليه: قال الذهبي رحمه الله عنه: "كان ينهض بعلوم جمة، ويجيد النقل، ويحسن النظم والنثر، وفيه دين وخير، ومقاصده جميلة، ومصنفاته مفيدة، وقد زهد في الرئاسة، ولزم منزله مكبا على العلم، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وقد أثنى عليه قبلنا الكبار. قال أبو حامد الغزالي: وجدت في أسماء الله تعالى كتابا ألفه أبو محمد بن حزم الاندلسي يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه. وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد: كان ابن حزم أجمع أهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، والمعرفة بالسير والاخبار، أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليفه أربع مئة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. وقال أبو عبد الله الحميدي: كان ابن حزم حافظا للحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننا في علوم جمة، عاملا بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء، وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين، وكان له في الأدب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديه أسرع منه، وشعره كثير جمعته على حروف المعجم. وقال اليسع ابن حزم عنه: أما محفوظه فبحر عجاج، وماء ثجاج، يخرج من بحره مرجان الحكم، وينبت بثجاجه ألفاف النعم، في رياض الهمم، لقد حفظ علوم المسلمين، وأربى على كل أهل دين، وألف "الملل والنحل". "بلغ رتبة الاجتهاد، وشهد له بذلك عدة من الأئمة"، وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ما رأيت في كتب الاسلام في العلم مثل "المحلى" لابن حزم، وكتاب "المغني" للشيخ موفق الدين. قلت: لقد صدق الشيخ عز الدين. وثالثهما: "السنن الكبير" للبيهقي. ورابعها: "التمهيد" لابن عبد البر. فمن حصل هذه الدواوين، وكان من أذكياء المفتين، وأدمن المطالعة فيها، فهو العالم حقا. قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: "يُسْتَحْمَدُ فِيهِ بِمُوَافَقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ، لِكَوْنِهِ يَثْبُتُ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ وَيُعَظِّمُ السَّلَفَ وَأَئِمَّةَ الْحَدِيثِ.. وَإِنْ كَانَ لَهُ مِنْ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ وَالْعُلُومِ الْوَاسِعَةِ الْكَثِيرَةِ مَا لَا يَدْفَعُهُ إلَّا مُكَابِرٌ ؛ وَيُوجَدُ فِي كُتُبِهِ مِنْ كَثْرَةِ الِاطِّلَاعِ عَلَى الْأَقْوَالِ وَالْمَعْرِفَةِ بِالْأَحْوَالِ؛ وَالتَّعْظِيمِ لِدَعَائِمِ الْإِسْلَامِ وَلِجَانِبِ الرِّسَالَةِ مَا لَا يَجْتَمِعُ مِثْلُهُ لِغَيْرِهِ.. وَتَعْظِيمُ أَئِمَّةِ الْأُمَّةِ وَعَوَامِّهَا لِلسُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَأَهْلِهِ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ : أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُذْكَرَ هُنَا".

منهجه النقدي: قال أبو العباس ابن العريف: كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين، وذلك أنه كان شديد الحمل على المخالفين، وأشد على المقلدين منهم، قال الحافظ الذهبي: ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب، بل فحج العبارة، وسب وجدع، فكان جزاؤه من جنس فعله، بحيث إنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة، وهجروها ونفروا منها، وأُحرقت في وقت، واعتنى بها آخرون من العلماء، وفتشوها انتقادا واستفادة، وأخذا ومؤاخذة، ورأوا فيها الدر الثمين ممزوجا في الرصف بالخرز المهين، فتارة يطربون، ومرة يعجبون، ومن

تفرده يهزؤون، وفي الجملة فالكمال عزيز، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ.. قال الحافظ الذهبي: "ما أعرض عنه – أي علم المنطق –حتى زرع في باطنه أمورا وانحرافا عن السنة– قال: وأقبل على علوم الاسلام حتى نال من ذلك ما لم ينله أحد بالأندلس قبله"،فكان معظماً للمنطق، شديد الإعجاب به حتى قال في كتابه في المنطق معظما للفلاسفة:"فحدوا في ذلك حدوداً، ورفعوا الإشكال، فنفع الله تعالى بها منفعة عظيمة وقربت بعيداً وسهّلت صعباً، وذللت عزيزاً، فمنها كتب أرسطاليس الثمانية المجموعة في حدود المنطق".

ولما تكلم القاضي أبو بكر العربي في الإمام ابن حزم وحطّ عليه، وهو شيخ أبيه، علّق الحافظ الذهبي على ذلك بقوله: ولم ينصف القاضي أبو بكر – رحمه الله – شيخ أبيه في العلم، ولا تكلم فيه بالقسط، وبالغ في الاستخفاف به، وأبو بكر فعلى عظمته في العلم لا يبلغ رتبة أبي محمد، ولا يكاد، فرحمهما الله وغفر لهما.

آثاره العلمية: ترك ابن حزم تراثا علميًّا كبيراً في شتى العلوم، وصفها الذهبي بالجليلة أكبرها كتاب "الإيصال إلى فهم كتاب الخصال" خمسة عشر ألف ورقة، وكتاب "الخصال الحافظ لجمل شرائع الاسلام" مجلدان وكتاب "المحلى" في الفقه مجلد، وكتاب "المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار" ثماني مجلدات، كتاب "حجة الوداع" مئة وعشرون ورقة، كتاب "الجامع في صحيح الحديث" بلا أسانيد، كتاب "التلخيص والتخليص في المسائل النظرية"، كتاب "ما انفرد به مالك وأبو حنيفة والشافعي"، كتاب "اختلاف الفقهاء الخمسة مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، وداود"، كتاب "التصفح في الفقه" مجلد، كتاب "الفرائض" مجلد، كتاب "الإحكام لأصول الأحكام" مجلدان، كتاب "الفصل في الملل والنحل" مجلدان كبيران، وغيرها كثير، بالإضافة لكتب الردود، والرسائل.

هذا الكتاب: أثبته الذهبي في السير حين تكلم عن الإمام ابن حزم، فقال: "ولابن حزم مصنفات جليلة.." ثم ذكر منها هذا الكتاب.. وذكر محقق الكتاب إيفار رياض أنه قابل الكتاب على خمس نسخ خطية، وهذا الكتاب هذا يدل على معرفة الإمام ابن حزم رحمه الله بالنفس الإنسانية في دوافعها، وطباعها، ما يدل على سعة اطلاعه، ومشاهداته، وملاحظاته، وتجاربه في حياته، ما لقيه ورآه وسمعه.

رؤية نقدية عامة: يرى أبو زهرة أن الأثر الفلسفي ظاهر على كتابي ابن حزم: طوق الحمام، وأنه بناه على الدراسات الفلسفية اليونانية للنفس والأخلاق، والتجارب الخاصة المبنية على الاستقراء، ومما ورد في كتابه "ابن حزم حياته وعصره وآثاره الفقهية":

– يظهر أنه كتبه في آخر حياته، أو بعد نضج واكتهل، وذاق حلو الحياة ومرها، فلم يكتبها في صدر حياته.

– اعتمد في دراستها على المقررات العلمية في الأخلاق التي كانت موروثة عن اليونان، وتُرجمت للعربية، ولا تخلو من الأخلاق العملية التي كانت معروفة عند الفرس والهند، كالتي في كتاب كليلة ودمنة، والأدب الصغير والكبير لابن المقفع، فاعتمد ابن حزم على الاستقراء والتتبع لأخلاق الناس الذين عايشهم.

– استمدت عناصرها على الدراسات الفلسفية المبنية على العقل، وعلى التجارب المبنية على الاستقراء، فمقياس أرسطو للفضيلة أنها وسط بين رذيلتين، وها هو ابن حزم يقول: الفضيلة وسيطة بين الإفراط والتفريط.. وأرجع أفلاطون أصول الفضائل إلى أربعة وجعلها ابن حزم أربعة، وإن اختلفا في بعضها، فاطلاع ابن حزم على ما كتبه فلاسفة اليونان في الأخلاق تظهر في كتابته وإن لم تكن واضحة، حيث

صقلها بخبرتها وممارسته، وامتثالها –كما مر أنه جمع بين العلم والعمل –، على أن اعتماده على الفكر اليوناني جعله يدرس الأخلاق دراسة عقلية تجريبية، لا دينية خالصة، فقد كان أحيانا يُورد بعض الآيات والأحاديث، فالإسلام قد دعا للأخلاق الفاضلة بل جاءت بها.

– اعتمد على العقل، باعتبار أن العقل والمعرفة والتهذيب والعلم بالمقياس الخلقي الضابط وأصول الفضائل المقررة وطرق علاج النفس بالنفس والأخذ بقوانين السلوك الفاضلة، كل هذا يهدي المرء للتي هي أقوم، ولهذا أوصى من ليس عنده هذه القدرات أن يعتمد على ما أمره الله ورسوله ﷺ، فأتى ببعض الآيات والأحاديث.

– عند كلامه عن فضل العقل في إدراك الفضائل، وأن الرذائل لا تقع إلا عن غفوة من العقل المستدرك المستقيم، واستشهد بقوله تعالى: {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحب السعير}، وبتصديق الله لهم في ذلك واعتبار عدم استعمال العقل هو ذنبهم الأكبر، قال تعالى: {فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير}، وكما استعان بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية لتأييد حكم العقل، يستعين أيضا بالعقل لتأييد حكم الشرع في الأخلاق والفضائل، بل انتهى إلى أن حد العقل هو استعمال الطاعات والفضائل، وأسْمَى ما عند أهل المعاصي من تدبير محكم في سياسة الدنيا وتدبير المعاش وأحكام الأعمال الدنيوية دهاء وزانة لا عقلا، أما العاقل فهو أسمى من ذلك، إذ هو الخضوع للحق بعد إدراكه مع سياسة الدنيا لتكون مزرعة الآخرة.

– نهل ابن حزم من معين فلاسفة اليونان والفرس كأفلاطون الأثيني وبزرجمهر الفارسي، وما قرره حكماء المسلمين كالحسن البصري، مع بقاء شخصية المؤلف حاضرة، وأسلوبه واضحاً.

– استقى ابن حزم من تجاربه معيناً أشار إليه في أول رسالته :"أفاد فيها واهب التمييز تعالى بمرور الأيام وتعاقب الأحوال".

– خطّأ بعضُ المحققين ابنَ حزم في جمعه عطفه الفلاسفة على الأنبياء عليهم السلام، وجعله خطأ فاحشا، واعتُذِر له بأن الجمع بنهم أن كلا منهم لا يريد المال، وإيثارهم عدمه على وجوده، ورُدّ هذا الزعم بأن ذلك يحتاج لتوثيق ونقل صحيح، ثم إن زهد الفلاسفة غير زهد الأنبياء..

– بعض المواضع أشكل عليّ فهمها، ولم أدر ما مراد المؤلف به، كقوله: "والزوايا تكرم"!

– باب الأخلاق واسع، وقد أتى القرآن الكريم والسنة النبوية بالأخلاق الحميدة، ترغيبا وترهيبا، قولا وعملا.. ولو أراد أحد أن يُورد لكل خُلق كريم دليلاً م الكتاب والسنة لأمكنه ذلك دون تكلف، واقتصار الإمام ابن حزم على نحو سبعة عشر استشهادا من الوحيين، أمر ملاحظ، ويدعو للتساؤل عن الخلفية أو البواعث الداخلية التي استُقي منها هذا المؤلف!

– الاسترسال في تقسيم الأخلاق، وغلبة الجانب العقلي، مع وفرة النماذج العملية، والتجارب الحية، يُعزز النظرية السابقة وهو تأثره بالفلاسفة، ونظرتهم للأخلاق.

– حاولتُ أن أرسم خارطة للنهج الذي سلكه المؤلف في كتابه، فأعياني ذلك، وبعد تأمل وقراءة، ظهر لي جلياً أن التسلسل المنطقي للكتاب غير متوفر، فليس هناك ثوابت انطلق منها، فبدأ بفصل يحمل اسم الكتاب، ثم تناول قريبا منه الأخلاق والسير ثم فيما يتعامل به الناس، ولم أجد الترابط المنطقي يلم شعث هذه الفصول، ثم إنه تناول الأخلاق عامة، ثم تراه يجعل العقل والراحة مقدمة، ويتبعها بالسير، وقد أحسن في التعقيب بفصل الإخوان والصداقة والنصيحة، ثم المحبة، وكأن المحبة موصولة بين الإخوان كونهم خارجين عن النفس، والصور

التي يتعلق بها القلب – داخليا-، ولم يتضح لي إلى هذه اللحظة وجه إيراد الفصل الأخير وحتى تأخيره لو صح – في حضور مجالس العلم- فثم فصول مرتبطة بالأخلاق والسير لم ترد، كآداب الرحلة، والسفر، والسمر، والجار، والضيف، وكان الأولى أن يتوسّع في بيان المحبة العظمى، محبة الله تعالى، وما تثمر عنه، وما تعنيه، ومحبة رسوله ﷺ وأنها مقدمة على النفس والولد.. إلى غير ذلك مما يحسُن إيراده.

مع الكتاب: بدأ مولّفه بحمد لله تعالى والصلاة على نبيه ﷺ.

- التواضع والاعتراف بالعجز، والاستعانة بالله في مستهل كتابه كقوله: "وأبرأ إليه تعالى من الحول والقوة، وأستعينه..."، مع إرجاع الفضل لأهله، وعدم نسبته لنفسه، كقوله: "فإني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة أفادنيها واهب التمييز تعالى..".
- طول اشتغاله بالعلم، وإنفاق العمر في تحصيله، وتقييد مطالعاته..
- تقسيم الكتاب لاثني عشر أو ثلاثة عشر فصلا – كما في بعض النسخ-، بدأها بفصل في مداواة النفوس و إصلاح الأَخْلاَق، وختمه بفصل في حُضُوْر مَجَالِس العلم.
- الاختصار والإيجاز في الكتاب، مع دقتها العبارة ورصانتها وأحيانا غرابتها، أو تعقدها.
- أورد فيه تسع آيات من القرآن الكريم، وعشرة أحاديث نبوية، وثلاثة مواضع شعرا، منها واحدا له هو.
- فطنة المولِّف وقوة فراسته، وقدرته على ضبط الجزيئات من الكليات، كقوله: "لذة العاقل بتمييزه ولذة العالم بعلمه.."، وقوله: "لإبليس في ذم الرياء حبالة، وذلك أنه رُبَّ ممتنع من فعل خير خوفَ أن يُظَن به الرياء".
- دقة تجليته لبعض أحوال الناس، كوصفه لمن همّه الآخرة: "ورأيتُه إن قُصِد بالأذى سُرَّ، وإن نكبته نكبة سُر، وإن تعب فيما سلك فيه سُر، فهو في سرور متصل أبداً وغيره بخلاف ذلك أبداً".
- وصفه لحالات ودرجات من العلم بالله تعالى والمنازل العالية من العبادة، كقوله: "ولذة الحكيم بحكمته ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده أعظم من لذة الآكل بأكله والشارب بشربه والواطيء بوطئه والكاسب بكسبه واللاعب بلعبه والآمر بأمره".
- إشارته لقاعدة من قواعد النقد وهي الإلمام المعرفي، كما في قوله: "يحكم في الشيئين من عرفهما، لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر".
- إفادة القارئ بتجربته العلمية والعملية كقوله: "إذا تعقبت الأمور كلها فسدت عليك".
- تقديم الأهداف المهمة والتي يسعى المؤمن لبلوغها، كقوله: "إلى أن الحقيقة إنما هي العمل للآخرة".
- بيان حقيقة الدنيا؛ ليُزهد فيها، وليكون العمل للآخرة، كقوله: "كل أمل ظفرت به فعقباه حزن إما بذهابه عنك وإما بذهابك عنه..".
- تناوله في مطلع كتابه لأحد أخطر الأمراض القلوب المؤدية وهو الهمّ، واتفاق الناس على طرده، مع تفاوتهم في سبيل ذلك، وأن الهمّ مصاحب لكل مطلوب للنفوس، فمن طلب المالَ طلبه ليطرد به همّ الفقر عن نفسه، ومن طلب العلم ليطرد به الجهل..
- تفصيله لحال مريد الدنيا ومريد الآخرة، والهمّ الذي يصيبهما، فذو الدنيا همُّه "من خوف منافس، أو طعن حاسد، أو اختلاس راغب، أو اقتناء عدو مع الذم والإثم وغير ذلك"، بينا طالب الآخرة "سالم من كل عيب، خالص من كل كدر، موصل إلى طرد الهم على الحقيقة، ووجدت العامل للآخرة أن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يسر إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب، وزايد في الغرض الذي إياه يقصد".

- الإشارة ضمناً لبعض الآيات والأحاديث والقواعد، كقوله: "إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم إذ ليس مؤاخذاً بذلك..".
- الاستشهاد بالأمثلة التي تقرب الصور في الأذهان وتُوضح المراد من الإتيان، كقوله:"باذل نفسه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصى"
- إيراد بعض الحِكَم البليغة: "لا مروءة لمن لا دين له، العاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة". "الخطأ في الحزم، خير من الخطأ في التضييع".
- وصفه في باب العقل والراحة، لهما بعبارة موجزة: هو "اطراح المبالاة بكلام الناس، واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل".
- تقريره لبعض الحقائق التي تبيّن طول تجربته ومعرفته بالناس، مثل السلامة من كلام الناس ضرْب من الجنون، وفي المقابل حذّر من الاغترار بكلام الناس سواء مدحاً أو ذمًّ، فقال في معرض كلامه عن المدح: "لأن مدحهم إياه إن كان بحق، وبلغه مدحُهم له، أسرى ذلك فيه الْعُجْب فأفسد بذلك فضائله، وإن كان بباطل فبلغه فسرَّه فقد صار مسروراً بالكذب وهذا نقص شديد".
- ترغيبه في الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، "فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات ونفرت من الرذائل والمعاصي والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي ونفرت من الفضائل والطاعات".
- تأكيده على أن الأخلاق والأعمال هي التي تميز الإنسان من الحيوان، لاسيما إذا اتفقا في صفة كالشجاعة والقوة، والعدو، والصوت، "فمن سُرّ بشجاعته التي يضعها في غير موضعها لله عز وجل، فليعلم أن النمر أجرأ منهن وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه، ومن سر بقوة جسمه فليعلم أن البغل والثور والفيل أقوى منه جسماً.. فأيُّ فخرٍ وأيُّ سرورٍ في ما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه! لكن من قوى تمييزه واتسع علمه وحسن عمله فليغتبط بذلك فإنه لا يتقدمه في هذه الوجوه إلا الملائكة وخيار الناس".
- الخوف من الله، ومخالفة هوى النفس جامع لكل فضيلة: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}، كما أن محبة الخير للغير، وعدم الغضب جامعان لكل فضيلة.
- تنبيهه على عظيم تخليص النية، وصفائها مما قد يُرّد معه العمل، ولا يخلف لصاحبه إلا الهم والنصب، كقوله: "وقد علموا يقيناً أن تلك النيات الفاسدة لا تعجل لهم شيئاً مما يتمنونه أو يوجب كونه، وإنهم لو صفوا نياتهم وحسنوها لتعجلوا الراحة لأنفسهم، وتفرغوا بذلك لمصالح أمورهم، ولا قتنوا بذلك عظيم الأجر في المعاد من غير أن يؤخر ذلك شيئاً مما يريدونه أو يمنع كونه".
- وعظه البليغ لاستثارة الآذان، وقرع القلوب، مرة مذكراً بالآخرة، والجنة والنار، ومرة بالفوز والخسارة، كقوله: "فأي غبن أعظم من هذه الحال التي نبهنا عليها وأي سعد أعظم من التي دعونا إليها.. فمن أضل ممن يبيع باقياً خالداً بمدة هي أقل من كرّ الطرف؟!.
- الإكثار من التصوير واستشعار المواقف، ليُربي في النفوس المحاسبة الذاتية، والرقابة، كقوله: "إذا نام المرءُ خرج عن الدنيا، ونسي كل سرور، وكل حزن، فلو رتّب نفسه في يقظته على ذلك أيضاً لسعد السعادة التامة".
- التنبيه على الإحسان للأهل والأقارب والجيران، وأن هذا أفضل الأخلاق، كقوله: "مَن أساء إلى أهله وجيرانه فهو أسقطهم، ومَن كافأ مَن أساء إليه منهم فهو مثلُهم، ومَن لم يكافئهم بإساءتهم فهو سيدهم وخيرهم وأفضلهم".
- البدء بمقدمات مقنعة، وأخرى تدعو للتفكر، كقوله:"لو لم يكن من فضل الْعِلْم إلا أن الجهال يهابونك ويجلونك وأن العلماء يحبونك ويكرمونك، لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة!".. "أجل العلوم ما قرّبك من خالقك".
- ترغيبه في العلوم الفاضلة، والمراتب العالية من العلم، كقوله: "مَن شغل نفسَه بأدنى العلوم وترك أعلاها، وهو قادر عليه، كان كزارع الذرة في الأرض التي يجود فيها البر وكغارس الشعراء حيث يزكو النخل والزيتون"، وفي المقابل حذر من نشْر العلم في غير أهله فهو مفسد لهم، كإدخال نوعين من الطعام لمن به داءٌ، يزيده هذان الطعامان فيه دائه، كما حذّر من البخل بالعلم، فجله ألْأَم من الباخل بالمال، وذكر أن العلوم الغامضة كالدواء القوي، يُصلح الأجسادَ القوية، ويهلك الأجسادَ الضعيفة، وكذلك العلوم الغامضة، تزيد

العقل القوي جودة وتصفية من كل آفة، وتهلك ذا العقل الضعيف" فكأنه لما ذكر بعض الأدوية التي تصلح الأخلاق والنفوس، تناول ما الأدواء التي تفسدهما..، مع تأكيده على أن العقل وحده لن ينفع ما لم يؤيده توفيق في الدين".

- النقد في بعض المواقف أسْلَم لدين المرء وعرضه وخُلقه"إياك أن تسر غيرك بما تسوء به نفسك فيما لم توجبه عليك شريعة أو فضيلة".
- أنجع التربية على "محاسن الأَخْلاَق كلها واستحقاق الفضائل بأسرها، الاقتداء بمحمد ﷺ وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه".
- النقد السلبي، تعرض له الإمام ابن حزم مرتين، فأهل الجهل أساؤوا له: "بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهله، وبسكوتهم عن الكلام بحضرته فهم أبداً ساكتون عما ينفعهم ناطقون فيما يضرهم"، والنقد الإيجابي لأهل العلم: "سرني أهل الْعِلْم مرتين من عمري: بتعليمي أيام جهلي، وبمذاكرتي أيام عملي".
- تناول مواضيع العلم والزهد، والرفقة، مع ضرب الأمثال وربطها بالتجارب المعايشة.
- تقييده منفعة العلم باستعمال حسن الفضائل واجتناب الرذائل، والحظ على سلامة الصدر والتواضع، والنأي أن بالدهاء..
- استعمال جماليات الأساليب البلاغية، كقوله: "الغادر يفي للمجدود والوفي يغدر بالمحدود"، وقوله: "الاستهانة نوع من أنواع الخيانة".
- التأكيد على البناء الإيماني والعلمي، كقوله:"لا تفكر فيمن يؤذيك، إن كنت مقبلاً فهو هالك.. وإن كنت مدبراً فكل أحد يؤذيك".
- التأكيد على محاسبة العبد نفسه، وتفقد حالها، وإصلاح عيوبها، كقوله: "طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها".
- التفصيل في أحوال الصبر، كونه من أعظم أسلحة طالب والعلم الشرعي وراغب الآخرة.
- التحذير من مجالسة الناس، كونها تورث هماً، وتعقب ندما، والحذر والتوسط في ذلك حسن، كقوله: "اجعلهم كالنار تدفأ بها ولا تخالطها"، ولم يُفرّق بين مخالطة مَن أراد نصهم وتعليمهم، ويصبر على آذاهم، وبين من لا يحتمل الأذى، ولا يصبر، أو لا يُنكر.
- التذكير ببعض النعم، كالصحة والغنى، كقوله: "لا يعرف حقها إلا من كان خارجاً عنها وليس يعرف حقها من كان فيها".
- التنبيه على ما يُصلح النفس ويُربيها، كقوله: "الطريق تبرم والزوايا تكرم وكثرة المال ترغب وقلته تقنع"، والتحذير مما يفسدها: "لا شيء أضر على السلطان من كثرة المتفرغين حواليه.. وأما مقرب أعدائه فذلك قاتل نفسه.."، والتذكير بالموت واليوم الآخر وعدم الغفلة..
- التنبيه بعدم الاغترار بما يشيعه الجهال من سوء الفهم، كنظرتهم للدنيا والتضييق على النفس، والاكفهرار. وعدم الانبساط..
- التربية على التثبت والتبيّن وعدم الاستعجال في الحكم، وهذا منهج رباني {فتبيّنوا}، مع بيان أسس إقامة العلاقة والصلة، وهو الدِّين، والحذر من المستخف بالحرمات، كقوله: "ثِق بالمتدين وإن كان على غير دينك، ولا تثق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك".
- التأكيد على المنهجية الصحيحة في التعامل مع الخلق، وهو الاعتذار عن الخطإ، وعدم تبريره بخطإ الآخرين، أو استسهال الإساءة بعد الإساءة، وكذا إحسان الظن في موطنه، وإساءته حين يدور الأمر على التأهب والتحفّظ، كقوله: "وأما سوء الظن فيعده قوم عيباً على الإطلاق وليس كذلك".
- تحرير وتصحيح بعض المفاهيم ،كقوله عن الجود: "غايته أن يبذل الفضل كله في وجوه البر وأفضل ذلك في الجار المحتاج وذي الرحم الفقير وذي النعمة الذاهبة والأحضر فاقة.. بذل الواجبات فرض، وبذل ما فضل عن القوت جود، والإيثار على النفس من القوت بما لا تهلك على عدمه فضل، ومنع الواجبات حرام.. والسخاء بما ظلمت فيه أو أخذته بغير حقه ظلم مكرر والذم جزاء ذلك، حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين والحريم وعن الجار المضطهد.. حد العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التي لا تحل لك.. حد العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه، وحد الجور أن تأخذه ولا تعطيه.. وحد الكرم أن تعطي من نفسك الحق طائعاً وتتجافى عن حقك لغيرك قادراً..".

- الحث على الشورى، والتحذير من التفرد بالأمر فيما يتعلق بالجماعة.. حد العقل استعمال الطاعات والفضائل، وهذا الحد ينطوي فيه اجتناب المعاصي والرذائل، وحد الحمق استعمال المعاصي والرذائل، وحد السخف هو العمل والقول بما لا يحتاج إليه في دين ولا دنيا ولا حميد خلق مما ليس معصية ولا طاعة ولا عوناً عليهما ولا فضيلة ولا رذيلة مؤذية ولكنه من هذر القول وفضول العمل.. الوقار ووضع الكلام موضعه والتوسط في تدبير المعيشة ومسايرة الناس بالمسالمة، فهذه الأَخْلاَق تسمى الرزانة وهي ضد السخف".
- الحث على ترويض النفس ومعالجتها، والصبر على ذلك حتى تذهب بعض المساوئ كالكلف في الرضاء والإفراط في الغضب، كقوله: " العتاب للصديق كالسبك للسبيكة فأما تصفو وإما تطير.".
- الصراحة في ذكْر بعض الأخلاق التي كابد ليتخلص منها، كقوله: "محبة في بعد الصيت والغلبة.. إفراط في الأنفة.. ومنها عيبان قد سترهما الله تعالى وأعان على مقاومتهما.. فذهب أحدهما.. وطاولني الثاني منهما ..ومنها حقد مفرط ..".
- ثباته على ما يعتقد، وعدم مبالاته بمخالفيه، كقوله: "وإني لا أبالي موافقة أهل بلادي في كثير من زيهم الذي قد تعودوه لغير معنى.."
- ضبطه للنقد الموجه إليه، وتفصيل الرد على مَن انتقده، كقوله: "مَن وصفني بذلك فقد أجمل الكلام ولم يفسره، والكلام إذا أُجمل أندرج فيه تحسين القبيح وتقبيح الحسن، ألا ترى لو أن قائلاً قال: إن فلاناً يطأ أخته لفحش ذلك ولاستقبحه كل سامع له حتى إذا فسر فقال: هي أخته في الإسلام ظهر فحش هذا الإجمال وقبحه".
- التحدث بنعم الله عليه، وعلى الناس، ومن ذلك تخلصه من بعض العيوب التي أشار إليها ولم يُبيّنها، وتناول بعضها، كقوله: "ووجدتُ أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبِّه، وعلى الحق وإيثاره..".
- التقيد بموضوع الكتاب وهو الأخلاق وإن لم يكن شاملاً لكل جوانب الأخلاق، وقد يُعذر المؤلف كونه جعلها رسالة مختصرة، فقد أطنب في ذكر قبائح وحسان، وكيفية مداواتها وطبها، ومن ذلك قوله: "وأما مَن طُبع على الجور واستسهاله، وعلى الظلم واستخفافه فلييأس من أن يُصْلِح نفسَه، أو يُقوِّم طباعَه أبداً، وليعلم أنه لا يفلح في دين ولا في خلق محمود".
- الإشارة إلى التربية الحسنة التي كان عليها، وبُعْده عن الأخلاق الذميمة، كقوله: "وأما الزهو والحسد والكذب والخيانة فلم أعرفها بطبعي قط وكأنني لا حمد لي في تركها لمنافرة جبلتي إياها والحمد لله رب العالمين".
- تناوله لأخلاق مؤدية، وصفات تنسف الأعمال وتورث الندامة، كقوله:"من عيب حُبِّ الذكر أنه يحبط الأعمال إذا أحب عاملها أن يُذْكَر بها، فكاد يكون شركاً؛ لأنه يعمل لغير الله، وهو يطمس الفضائل لأن صاحبه لا يكاد يفعل الخير حباً للخير لكن ليذكر به".
- الترغيب في تقبّل النقد، والاعتراف بالتقصير، لمعالجة القصور، ومن ذلك الحذر من الاغترار بالمدّاحين، كقوله: "أبلغ في ذمك من مدحك بما ليس فيك، لأنه نبه على نقصك، وأبلغ في مدحك من ذمك بما ليس فيك..."، "لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً، لا يخلو مخلوق من عيب فالسعيد من قلت عيوبه ودقت"، " استبقاك من عاتبك وزهد فيك من استهان بسيئاتك.".
- فصّل في الإخوان والصداقة والنصيحة كونها أمور لا يُستَغن عنها، وهي من أعظم ما يُعين العبد إذا وُفق.
- ذكْر ما قد يحصل بين الأصدقاء من عتاب قد يجر للفرقة وفي المقابل جعل مَن طوى السرَّ الذي يعنيك عنك أخونَ ممن أفشى سرَّك.
- وضع معايير لاختيار الصديق، كقوله: "لا ترغب فيمن يزهد فيك.. لا تزهد فيمن يرغب فيك"، عدم الانزعاج من الأصدقاء الذين يتغيّرون في الشدة والضيق ولو طالت صحبتهم، حمْل الأصدقاء على صفاء النية، والبراءة من المكر والخديعة، والاتصاف بفضائل الأبرار..، كتم الأسرار، وعدم إفشائها، بذل المال، والجاه لمن سأله ومن لم يسأله، ولكل محتاج إليه ويمكن نفْعه، مع عدم انتظار الثناء عليه، كقوله: "ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عز وجل"..، فقد تُحسَد على إحسانك من "ذوي التراكيب الخبيثة"، كما وضع حدًّا للصداقة، فالصديق "يسوؤه ما يسوء الآخرَ"..

- الترغيب في المعاملة الحسنة، وإضمار السلو عن الفائت بالآفات "لتعش مسالماً مستريحاً".
- نقد الأساليب الدعوية القائمة على تبييت الأحكام، واليأس من المدعوين، وانتظار ثناء المتصدَّق عليهم، كقوله: "لا تنصح على شرط القبول، ولا تشفع على شرط الإجابة، ولا تهب على شرط الإثابة"، وإنما عليك ذلك "على سبيل استعمال الفضل وتأدية النصيحة والشفاعة وبذل المعروف".
- بيّن درجات الصداقة، فأعلاها "مَن شاركك بنفسه وبماله لغير علة توجب ذلك وآثرك على من سواك". وذكر من أصحابه "مظفراً ومباركاً".. وفي المقابل جعل "الشاكرية والأتباع أيام الحرمة، والمصادقين لبعض الأطماع والمتنادمين على الخمر والمجتمعين على المعاصي والقبائح والمتألفين على النيل من أعراض الناس" ليسوا بأصدقاء، فالأصدقاء "إخوان الصفاء لغير معنى، إلاّ لله عز وجل".
- تقرير مبدإ مهم في الصداقة وغير الصداقة "ليس في الرذائل أشبه بالفضائل من محبة المدح"، إلا أن يُراد به استصلاح المؤذي ونحوه.
- تنقية النصيحة مما يُشبه الفضيحة، فبعضها يُشْكِل تمييزُه من النميمة، "فمن سمع إنساناً يذم آخر ظالماً له أو يكيده، فكتم ذلك عن المقول فيه والمكيد كان الكاتم لذلك ظالماً مذموماً، ثم إن أعلمه بذلك ربما ولد على الذام والكائد ما لم يبلغه استحقاقه بعد من الأذى فيكون ظالماً له".
- بيانه لدرجات النصيحة: فرض وديانة، تنبيه وتذكير، والثالثة توبيخ وتقريع، ليس وراءه إلا التركل واللطام، وربما أشد.. بغي وأذى.
- تأكيد طريقة النصيحة "سراً لا جهراً وبتعريض لا تصريح، إلا أن لا يفهم المنصوح تعريضك، ولا تُصرِّح على شرط القبول منك فمجاوز النصيحة ظالم لا ناصح وطالب طاعة وملك لا مؤدي حق أمانة وأخوة، وليس هذا حكم عقل ولا صداقة، بل حكم سيد مع عبيده".
- العناية باختيار ألفاظ النصيحة "إذا نصحت في الخلاء وبكلام لين ولا تسند سب من تحدثه إلى غيرك فتكون نماماً فإن خشنت كلامك في النصيحة فذلك إغراء وتنفير، وقد قال الله تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا}، مع "التأسي بالنبي ﷺ في وعظ أهل الجهل والمعاصي و الرذائل، والبعد الجفاء والاكفهرار، واستصحاب البشر والتبسم واللين، وكأنه مشير برأي ومخبر عن غير الموعوظ، وعدم المواجهة بل بالتلميح: ما بال أقوام يفعلون كذا؟ مع التخول بالموعظة حتى لا يُمَل.
- التنبيه على مما ينفر الصديق، كقوله: "لا تكلف صديقك إلا مثل ما تبذل له من نفسك، ولا تكسب إلا على شرط الفقد، ولا تتول إلا على شرط العزل وإلا فأنت مضر بنفسك خبيث السيرة"، وتفطّنه لقواطع الصداقة: المصاهرة والمبايعة –البيع والشراء معه-.
- صحّح بعض السلوكيات التي يراه بعضهم إيجابيات، "فمسامحة أهل الاستئثار والاستغنام والتغافل لهم، ليس مروءة ولا فضيلة، بل هو مهانة وتضرية لهم على التمادي على ذلك الخلق المذموم.. وإنما المسامحة مروءة لأهل الإنصاف المبادرين إلى الإنصاف والإيثار".
- وضع ضابط الذم والمدح، "لا تأس إن ذممت بما ليس فيك بل افرح به، فإنه فضلك ينبه الناس عليه، ولكن افرح إذا كان فيك ما تستحق به المدح، سواء مُدحِتَ به أو لم تمدح، واحزن إذا كان فيك ما تستحق به الذم، وسواء ذممت به أو لم تذم".
- العناية بالأعراض والمحرمات وأن الواقع فيها"عَيّابة وقاعاً في الناس سليط اللسان أو دافع معرة عن نفسه يريد أن يكثر أمثاله في الناس"
- العناية بصوْنِ الشرف عما يُدنسه، "فمن سمع القولَ مستفيضاً من جماعة وعلم – أنهم يتحدثون في امرأة فلان –.. فليقل لصديقه: النساء كثير أو حصن منزلك وثقف أهلك أو اجتنب أمراً كذا وتحفظ من وجه كذا، فإن لم يستجب ففرضٌ عليه أن يُوقِف صديقه على الحقيقة، فإن غيّر فذلك، وإن رآه لا يُغيّر "اجتنب صحبته فإنه رذل لا خير فيه ولا نقية"، "ودخول رجل متستر في منزل المرء، أو المرأة في منزل رجل على سبيل التستر دليل سوء لا يحتاج إلى غيره.. وواجب أن يجتنب مثل هذه المرأة وفراقها على كل حال وممسكها لا يبعد عن الدياثة".

- التفصيل في أخلاق الناس، على سبع مراتب: "طائفة تمدح في الوجه، وتذم في المغيب، وهذه صفة أهل النفاق.. وطائفة تذم في المشهد والمغيب، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيابين، وطائفة تمدح في الوجه والمغيب، وهذه صفة أهل الملق والطمع، وطائفة تذم في المشهد، وتمدح في المغيب وهذه صفة أهل السخف والنواكة.. ومن كل من أهل هذه الصفات قد شاهدنا وبلونا".
- استفادته من تعليم الجهال، كقوله: "لكل شيء فائدة، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقد طبعي واحتدم خاطري وحمي فكري وتهيج نشاطي فكان ذلك سبباً إلى تواليف لي عظيمة المنفعة ولولا استثارتهم ساكني.. ما انبعثت لتلك التواليف".
- عقَد فصلاً عن المحبة وأنواعها، وعرفها بـ"الرغبة في المحبوب وكراهة منافرته والرغبة في المقارضة منه" وتختلف من أجل اختلاف الأغراض؛ لاختلاف الأطماع وتزايدها وضعفها أو انحسامها فتكون المحبة لله عز وجل وفيه"، ومنها محبة الأب والقرابة والصديق وذات الفراش..
- أورد عبارات تدل على نظرته التحليلية للنفس وأخلاقها، كقوله: "أدنى أطماع المحبة ممن تحب الحظوة منه والرفعة لديه والزلفة عنده إذا لم تطمع في أكثر، وهذه غاية أطماع المحبين لله عز وجل، ثم يزيد الطمع في المجالسة ثم في المحادثة والموازرة، وهذه أطماع المرء في سلطانه وصديقه وذوي رحمه، وأقصى أطماع المحب ممن يحب المخالطة بالأعضاء.."، "نزاهة النفس مركبة من النجدة والجود والعدل والفهم، والطمع متركب من الصفات المضادة لهذه الصفات وهي الجبن والشح والجور والجهل"، "الرغبة طمع مستوفى متزايد مستعمل ولولا الطمع ما ذل أحد لأحد".
- تقسيم المحبة لخمسة أدرج: الاستحسان: تمثل صورة المنظور إليه حسنة أو حسنة أخلاقه، ثم الإعجاب به وهو رغبة الناظر في المنظور إليه وفي قربه، ثم الألفة وهي الوحشة إليه إذا غاب، ثم الكلف وهو غلبة شغل البال به وهذا النوع يسمى في باب الغزل بالعشق، ثم الشغف وهو امتناع النوم والأكل والشرب إلا اليسير من ذلك وربما أدى ذلك إلى المرض أو إلى التوسوس أو إلى الموت وليس وراء هذا منزلة في تناهي المحبة أصلاً.
- الإكثار من ضرب الأمثال، مع تجلية حال الموصوفين، وكقوله: "رأيت الناس في كلامهم الذي هو فصل بينهم وبين الحمير والكلاب والحشرات ينقسمون أقساماً ثلاثة: مَن لا يبالي فيما أنفق كلامه فيتكلم بكل ما سبق إلى لسانه، غير محقق نصر حق ولا إنكار باطل وهذا هو الأغلب في الناس. والثاني: أن يتكلم ناصراً لما وقع في نفسه أنه حق ودافعاً لما توهم أنه باطل غير محقق لطلب الحقيقة لكن لجاجاً فيما التزم وهذا كثير دون الأول، والثالث: واضع الكلام في موضعه، وهذا أعز من الكبريت الأحمر"، وقوله: " من عجيب تدبير الله عز وجل للعالم أن كل شيء اشتدت الحاجة إليه كان ذلك أهون له وتأمل ذلك في الماء فما فوقه، وكل شيء اشتد الغنى عنه كان ذلك أعز له وتأمل في الياقوت الأحمر فما دونه"، ومنها ما يقع كالحِكَم، كقوله: "الطبع دقيق الهمة مهين النفس"، "من امتحن بقرب من يكره كمن امتحن ببعد من يحب ولا فرق، إذا دعا المحب في السلو، فإجابته مضمونة ودعوته مجابة، اقنع بمن عندك يقنع بك من عندك، إذا ارتفعت الغيرة فأيقن بارتفاع المحبة". "ليس شيء من الفضائل كلما كان المرء منه أعرى قوي ظنه في أنه قد استولى عليه واستمر يقينه في أنه قد كمل فيه إلا العقل والتمييز، حتى إنك تجد المجنون المطبق والسكران الطافح يسخران بالصحيح، والجاهل الناقص يهزأ بالحكماء وأفاضل العلماء، والصبيان الصغار يتهكمون بالكهول، وضعفة النساء يستنقصن عقول أكابر الرجال وآراءهم".
- تعريفه للغيرة بأنها "خلق فاضل متركب من النجدة والعدل، لأن من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره، وإن يتعدى غيره إلى حرمته ومن كانت النجدة طبعاً له حدثت فيه عزة ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتضام".

- بنى كلامَه على ما عرّف به مراده –تعريفاته الاصطلاحية–، فمثلاً، فصّل القول في صباحة الصور وأنواعها، فقال: "الحلاوة: رقة المحاسن ولطف الحركات وخفة الإشارات وقبول النفس لأعراض الصور وإن لم تكن ثم صفات ظاهرة، القوام: جمال كل صفة على حدتها، الروعة: بهاء الأعضاء الظاهرة مع جمال فيها وهي أيضًا الفراهة والعتق، الحسن: هو الشيء ليس له في اللغة اسم يعبر به عنه، ولكنه محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه، وهو برد مكسو على الوجه، وإشراق يستميل القلوب نحوه فتجتمع الآراء على استحسانه، وإن لم تكن هناك صفات جميلة فكل من رآه راقه واستحسنه وقبِلَه.. وهذا أجل مراتب الصباحة. والملاحة: اجتماع شيء فشيء مما ذكرنا"، وعرّف التلون المذموم بأنه: "التنقل من زي متكلف لا معنى له إلى زي آخر مثله في التكلف، وفي أنه لا معنى له، ومن حال لا معنى لها إلى حال لا معنى لها، بلا سبب يوجب ذلك. ثم قعّد فقال: "مَن استعمل من الزي ما أمكنه مما به إليه حاجة وترك التزيد مما لا يحتاج إليه فهذا عين من عيون العقل والحكمة كبير، وقد كان رسول الله ﷺ وهو القدوة في كل خير، والذي أثنى الله تعالى على خلقُه، والذي جمع اللهُ تعالى فيه أشتات الفضائل بتمامها وأبعده عن كل نقص، يعود المريضَ مع أصحابه راجلاً في أقصى المدينة بلا خُفٍ ولا نعل ولا قلنسوة ولا عمامة، ويلبس الشعر إذا حضره، وقد يلبس الوشي من الحبرات إذا حضره ولا يتكلف ما لا يحتاج إليه، ولا يترك ما يحتاج إليه، ويستغني بما وجد عما لا يجد.."، وقال: "الثبات الذي هو صحة العقد، والثبات الذي هو اللجاج، مشتبهان اشتباهاً لا يفرق بينهما إلا عارف بكيفية الأخلاق، والفرق بينهما أن اللجاج هو ما كان على الباطل أو ما فعله الفاعل نصراً لما نشب فيه وقد لاح له فساده أو لم يلح له صوابه ولا فساده وهذا مذموم وضده الإنصاف، وأما الثبات الذي هو صحة العقد فإنما يكون على الحق، أو على ما اعتقده المرء حقاً، ما لم يلح له باطله وهذا محمود وضده الاضطراب".
- تقعيد بعض المسائل وتسهيل تصورها، كقوله: "أصول الفضائل كلها أربعة، عنها تتركب كل فضيلة: العدل والفهم والنجدة والجود، أصول الرذائل كلها أربعة عنها تتركب كل رذيلة:وهي أضداد ما ذكرنا وهي: الجور والجهل والجبن والشح، الأمانة والعفة نوعان من أنواع العدل والجود"، "الفضيلة وسيطة بين الإفراط والتفريط، فكلا الطرفين مذموم، والفضيلة بينهما محمودة حاشا العقل فإنه لا إفراط فيه".
- تصوير الأخلاق القبيحة في أبشع صورة وأسوإ حال، كقوله: "لا شيء أقبح من الكذب، وما ظنك بعيب يكون الكفر نوعاً من أنواعه، فكل كفر كذب، فالكذب جنس، والكفر نوع تحته.. الجبن يولد مهانة النفس، والكذاب مهين النفس بعيد عن عزتها المحمودة".
- التفريق بين موافقة الجليس وأهل زمانه ومخالفتهم، فيحذر من موافقة الجليس السيء ومساعدة أهل زمانه فيما يضر في الآخرة أو في الدنيا، ويحذر من مخالفتهم فيما لا يضرك في الدنيا ولا في الآخرة.
- التوازن والاعتدال في وضع الأخلاق موضعها "فالغلظة والشدة تجب في حد من حدود الله، فلا لين في ذلك للقادر على إقامة الحد".
- إجادته لبعض أساليب معالجة النفوس، ورأب ما ساء من أخلاقها، كقوله: "يجب أن تؤرخ الفضائل والرذائل؛ لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره، ويرغب في الحسن المنقول عمن تقدمه ويتعظ بما سلف".
- استعماله لجانب العقل والحظ على التأمل والتفكر، كما في أقواله: تدبر، نظرن تأمل، تفكر، وكأنه جعله أولاً، وكأنه مقيّد..
- تناول فصلاً عن أدواء الأَخْلاَق الفاسدة ومداواتها، وذكر منها العجب بالرأي والعمل والعلم، والافتخار بالفواحش والسرقة والظلم..
- أرشد للطرق التخلص من أدواء الأخلاق، كقوله: "من امتحن بالعجب، فليفكر في عيوبه، فإن أعجب بفضائله، فليفتش ما فيه من الأَخْلاَق الدنيئة، فإن خفيت عليه عيوبه..، فليعلم أن مصيبته إلى الأبد، وأنه لأتم الناس نقصاً وأعظمهم عيوباً وأضعفهم تمييزاً".

- الواقعية في الطرح والمعالجة، والمقارنة بين الأخلاق الحميدة والذميمة، كقوله: "واعلم يقيناً: أنه لا يسلم إنسي من نقص حاشا الأنبياء صلوات الله عليهم، فمن خفيت عليه عيوب نفسه.. فليتدارك نفسه بالبحث عن عيوبه.. ولا تمثّل بين نفسك وبين من هو أكثر عيوباً منها؛ فتستسهل الرذائل، وتكون مقلداً لأهل الشر.. لكن مثّل بين نفسك وبين من هو أفضل منك؛ فحينئذ يتلف عجبك، وتفيق من هذا الداء القبيح"، وقوله: "واعلم أن كثيراً من أهل الحرص على الْعِلْم يجدون في القراءة والإكباب على الدروس والطلب ثم لا يرزقون منه حظاً، فليعلم ذو الْعِلْم أنه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقه، فصحّ أنه موهبة من الله تعالى وهذا موضع تواضع وشكر لله تعالى واستزادة من نعمه واستعاذة من سلبها"، وقوله: "رياضة الأنفس أصعب من رياضة الأُسْدِ".
- تفصيله وتمثيله لشر الأدواء وأخطرها على المرء وهو العجب، وإرشاده لأهله بالتفكر فيمن هو أعلم، وما خفي من العلم، وعدم مطابقة القول العمل، ونوع العلم، أمن علوم الآخرة أم من الدنيا، وأرشد من أُعجِب بشجاعته أن يتفكر فيمن هو أشجع، وينظر في حال الشيخوخة، فكأنه عالج داء العجب بأدوية عملية وعلمية، فكرية وتطبيقية، ومن جميل قوله: "وإن أعجبت بنسبك فهذه أسوأ من كل ما ذكرنا لأن هذا الذي أعجبت به لا فائدة له أصلاً في دنيا ولا آخرة". وانظر هل يدفع عنك جوعة. أو يستر لك عورة أو ينفعك في آخرتك؟..
- التحذير من "التعسف وسوء الملكة، لمن خولك الله أمره، من رقيق أو رعية يدلان على خساسة النفس ودناءة الهمة وضعف العقل".
- الربط بين أصالة اللغة والدارج من لغة الناس، كقوله: "الْعُجْب لغير معنى ولغير فضيلة في المعجب.. يسميه عامتنا "التمترك".
- رأى أن علاج العجب في "الفقر والخمول، فلا دواء لهم أنجع منه، وإلا فداؤهم وضررهم على الناس عظيم جداً، فلا تجدهم إلا عيابين للناس وقاعين في الأعراض مستهزئين بالجميع مجانبين للحقائق مكبين على الفضول".
- بعض الأخلاق الرذيلة قد تحملها النفس ولا تظهر إلا حين يكون هناك سبب يستهويها، كقوله: "وقد يكون الْعُجْب كميناً في المرء حتى إذا حصل على أدنى مال أو جاه ظهر ذلك عليه وعجز عقله عن قمعه وستره".
- التحذير مما يُضعف ثقة الناس في المرء ويؤدي به، كمدح النفس، فهو مدعاة لأن يُكذّبه السامع، أو "يمدح أحداً في وجهه فإنه فعل أهل الملق وضعة النفوس، وإياك وذم أحد لا بحضرته ولا في مغيبه، فلك في إصلاح نفسك شغل، وإياك والتفاقر–أي التظاهر بالفقر– .. وإياك ووصف نفسك باليسار..".
- التحذير من الحسد، وبعض أساليب أهله، وردة أفعالهم حين يسمعون العلم، أو يرون خيراً منهم.
- تصوير العدل في أجمل حلة، كقوله: "العدل حصن يلجأ إليه كل خائف، وذلك أنك ترى الظالم وغير الظالم إذا رأى من يريد ظلمه؛ دعا إلى العدل وأنكر الظلم حينئذ وذمه، ولا ترى أحداً يذم العدل، فمَن كان العدل في طبعه، فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين".
- التأكيد على خُلق الاحترام لا الاحتقار، والتكريم لا التحقير، "فالاستهانة بالمتاع دليل على الاستهانة برب المتاع"، و"حالان يحسن فيهما ما يقبح في غيرهما، وهما: المعاتبة والاعتذار، فإنه يحسن فيهما تعديد الأيادي، وذكر الإحسان، وذلك غاية القبح في ما عدا هاتين الحالتين".
- بيان حقيقة المال وما ينبغي أن يكون فيه، "فالعرض أعز من المال، والكريم يصون جسمه بماله، ويصون نفسه بجسمه، ويصون عرضه بنفسه، ويصون دينه بعرضه، ولا يصون بدينه شيئاً أصلاً، والخيانة في الأعراض أشد من الخيانة في الأموال".
- حذر من عجائب الأخلاق ونبّه حتى لا ينخدع بالمظاهر، "فالعاقل لا يحكم بما يبدو له من استرحام الباكي المتظلم، وتشكّيه، وشدة تلويه وتقلبه وبكائه، فقد وقفت من بعض من يفعل هذا على يقين أنه الظالم المعتدي، ورأيت بعض المظلومين ساكن الكلام معدوم التشكي.."، ليس كل خلق مذموم ممنوعا، "فالغفلة مذمومة واستعمالها محمود، فالمغفل يستعملها في غير موضعها، وحيث يجب

التحفظ.."، "لما كان إظهار الجزع مذموماً كان إظهار ضده محموداً، وهو إظهار الصبر لأنه ملك للنفس واطراح لما لا فائدة فيه وإقبال على ما يعود وينتفع به..".

- وضع فصلاً في تطلع النفس إلى ما يستر عنها من كلام مسموع، أو شيء يدني إلى المدح وبقاء الذكر، كون النفوس تتطلع لهذين الأمرين، ثم وضع علاجاً لذلك، التفكّر في كثرة من خلا من الفضلاء من الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أولاً، ثم من الفضلاء الصالحين من أصحاب الأنبياء السالفين والزهاد.. فهل ضر من كان فاضلاً منهم ذلك أو نقص من فضائلهم أو طمس من محاسنهم أو حط درجتهم عند بارئهم عز وجل؟ وهل الإِنْسَان وإن ذكر برهة من الدهر إلا كمن خلا قبل من الأمم الغابرة الذين ذكروا ثم نسوا جملة؟ ثم ليتفكر الإِنْسَان في من ذكر بخير أو بشر هل يزيده ذلك عند الله عز وجل درجة أو يكسبه فضيلة، لم يكن حازها بفعله أيام حياته، فإذا كان هذا كما قلناه فالرغبة في الذكر رغبة غرور ولا معنى له ولا فائدة فيه أصلاً. لكن ينبغي أن يرغب الإِنْسَان العاقل في الاستكثار من الفضائل وأعمال البر..".
- من الأخلاق التي رغّب فيها الشكر، "فشُكْر المنعم فرض واجب، وإنما ذلك بالمقارضة له بمثل ما أحسن، وليس من الشكر عونه على الآثام وترك نصيحته..".
- ختم بفصل "في حُضُوْر مَجَالِس العلم، وذكر فيه بعض الآداب، كقوله: "إذا حضرت مَجْلِس علم، فلا يكن حُضُوْرك إلا حُضُوْر مستزيد علماً وأجراً، لا حُضُوْر مستغن بما عندك، طالباً عثرة تشيعها، أو غريبة تشنعها، فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون في الْعِلْم أبداً.. فإذا حضرتها فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها وهي: إما أن تسكت سكوت الجهال فتحصل على أجر النية في المشاهدة وعلى الثناء عليك بقلة الفضول وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس، فإن لم تفعل ذلك فاسأل سؤال المتعلم؛ فتحصل على هذه الأربع محاسن، وعلى خامسة وهي استزادة العلم، والوجه الثالث: أن تراجع مراجعة العالم وصفة ذلك: أن تعارض جوابه بما ينقضه نقضاً بيناً فإن لم يكن ذلك عندك، ولم يكن عندك إلا تكرار قولك، أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة، فأمسك فإنك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر، ولا على تعليم، ولا على تعلم بل على الغيظ لك، ولخصمك، والعداوة التي ربما أدت إلى المضرات، وإياك وسؤال المعنت ومراجعة المكابر ..وأقبل عليه إقبال سالم القلب عن النزاع عنه، والنزوع إليه، إقبال من يريد حظ نفسه في فهم ما سمع ورأى؛ فتزيد به علماً، وقبوله إن كان حسناً، أو رده إن كان خطأً".
- وصف سؤال المتعلم، بقوله: " تسأل عما لا تدري، لا عما تدري، فإن السؤال عما تدريه سخف وقلة عقل، وشغل لكلامك وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك، وربما أدى إلى اكتساب العداوات وهو بعد عين الفضول، فيجب عليك أن لا تكون فضولياً، فإنها صفة سوء، فإن أجابك الذي سألت بما فيه كفاية لك؛ فاقطع الكلام، وإن لم يجبك بما فيه كفاية، أو أجابك بما لم تفهم، فقل له: لم أفهم، واستزده. فإن لم يزدك بياناً وسكت، أو أعاد عليك الكلام الأول، ولا مزيد فأمسك عنه، وإلا حصلت على الشر والعداوة ولم تحصل على ما تريد من الزيادة".
- ولأن الحكم والكلام المقول من تجربة يختصر الكثير، ويجمع المعاني، فقد أكثر منه، ومن ذلك قوله: "من العجائب أن الفضائل مستحسنة ومستثقلة، والرذائل مستقبحة ومستخفة، لا تسلم عدوك لظلم، ولا تظلمه، غاية الخير أن يسلم عدوك من ظلمك، ومن تركك إياه للظلم، وأما تقريبه فمن شيم النوكى – أي الحمقى- الذين قد قرب منهم التلف، وغاية الشر أن لا يسلم صديقك من ظلمك، وأما إبعاده فمن فعل من لا عقل له ومن كتب عليه الشقاء.
- ختم كتابه بال دعاء، "جعلنا الله ممن يوفق لفعل الخير والعمل به، وممن يبصر رشد نفسه، فما أحد إلا له عيوب إذا نظرها شغلته عن غيره، وتوفانا على سنة محمد ﷺ آمين رب العالمين".